الكتاب: حقيقتها ومواقف العلماء منها ومعها نصيحة الأغبياء ببطلان الكيمياء

المؤلف:

الكتاب: حقيقتها ومواقف العلماء منها ومعها نصيحة الأغبياء ببطلان الكيمياء

المؤلف:

الكيمياء القديمة

حقيقتها ومواقف العلماء منها

ومعها نصيحة الاغبياء ببطلان الكيمياء للامام ابن قيم الجوزية

الحمدالله العلي الكبير اللطيف الخبير المتفرد بالخلق والتقدير والبرء والتصوير الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وامات واحيا واضل وهدى واسعد واشقى الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد.

هو الله الخالق البارئ المصور لا شريك له في افعاله كما لا شبيه له في نعوت جلاله وصفات كماله ولا مشارك له في ايجاد شيء من مصنوعاته كما لا مماثل له في ذاته {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَاهٍ إِذًا؟ لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَاهٍ؟ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ((91)) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ((92))} سورة المؤمنون.

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ؟ فَاسْتَمِعُوا؟ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا؟ ذُبَابًا؟ وَلَوِ اجْتَمَعُوا؟ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا؟ لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ((73)) مَا قَدَرُوا؟ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ((74))} سورة الحج.

{وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا؟ لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا؟ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)} سورة الرعد.

والحمد لله كاشف اسرار المبطلين وهاتك استار الملبسين ومبدي خبايا المدلسين وملبس ثوب المذلة للكاذبين المفترين الذين يلبسون على ضعفاء العالمين ويسعون بحيلهم في افساد

الدنيا والدين فكم من مغتر بهم قد قتلوه وذي مسكة من عقل قد صرعوه ومستور بين الناس بنعمة الله عليه قد افقروه ومستقر في وطنه قد شتتوا شمله وعنه شردوه وبالعراء بعد لين المهاد نبذوه ومن دينه وعرضه وماله اخرجوه ولجاهه وحرمته بين الناس سلبوه وعلى ابواب الخيبة والحرمان طرحوه.

قد خاب امله وضل سعيه وعمله واشتد بعد الامن خوفه ووجله قد لبسته ذلة المفترين واغشى وجهه ظلمة الكاذبين.

حتى اذا انقطعت به من الوصل الاسباب وسدت دون اطماعه واماله الابواب وجعل يقلب طرفه في اقطار العالم ويضرب يمينا وشمالا وقد تيقن المغرور انه من الاخسرين اعمالا وان سعيه الطويل كان في غير مسعى بل هو من {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ((104))} سورة الكهف.

قد فر عنه المعاشرون والاصحاب، ولم يثبت معه الا صحبه هياب بن خياب (الخياب من الخيبة والحرمان ومن امثال العرب جعل الله سعي فلان في خياب بن هياب اي في خسار انظر: العين 4/ 315 والاتباع والمزاوجة 299 والمحكم 5/ 165 وشرح التسهيل لابن مالك 1/ 182) [2/و] ووجد مطلوبه الذي انفق فيه نفائس عمره وماله {أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ? بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا? وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ((39))} سورة النور.

احمده وهو بالحمد جدير واستعينه استعانة العاجز الفقير واعتصم به واستهديه واستنصره فهو نعم الهادي ونعم النصير. واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له كلمة اشهد بها مع الشاهدين وادخرها عند الله عدة ليوم الدين.

واشهد ان الحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور.

واشهد انه المنفرد بالخلق والامر {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)} سورة الاعراف.

واشهد ان محمدا عبده ورسوله الذي ارسله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على العباد اجمعين ارسله {بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} سورة التوبة اية 33. وسورة الصف اية 9. وايده بالمعجزات الباهرة وقواطع البراهين ومن اعظمها كتابه الحق الفارق بين الهدى والضلال والغي والرشاد والشك واليقين فلم يدع مشكلا الا اوضحه ولا بابا من ابواب الهداية الا وفتحه ولا طريقا موصلا الى الله الا نهجه ولا معوجا الا وقومه او بين عوجه فصلى الله عليه وعلى اله الطيبين الطاهرين صلاة دائمة بدوام السماوات والارضين.

اما بعد، فان الله سبحانه اتقن كل ما صنعه كما اوجده بعد ان لم يكن وابتدعه فهو المنفرد بالايجاد والابداع والاتمام والاتقان فهو الخلاق العليم والمدبر الحكيم.

فلا سبيل للخلق كلهم ولو اجتمعوا في صعيد واحد واعطي كل واحد من العلم والعقل (رسمها في الاصل والعقد والصواب المثبت) والقدرة والحكمة غاية ما يناله المخلوق = ان يخلقوا

شيئا يضاهون به خلق الله ولو حبة، ولو شعيرة، ولو ذرة فما دونها، وانما غاية ما تناله قدرهم وتحيط به افعالهم ما اقدروا عليه من الصناعات والتركيبات والاصباغ والتصورات ونحوها من تغييرات بعض صفات المواد، ونقلها من لون الى اخر، ومن شكل الى غيره، ومن كيفية مخصوصة الى اخرى، ومن مكان الى مكان، ومن جمع الى تفرقة، ومن تفرقة الى جمع، ونحو هذا مما هو متعلق قدرة العباد.

واما ايجاد جسم يكون نظيرا لما ابدعه الخلاق العليم من كل وجه مساويا له في الحد والحقيقة فحاشا وكلا، ان هي الا اصباغ وتشبيهات ونوع محاكاة (2 - ظ) يشتبه فيها المنظر بالمنظر، فيظن القاصر النظر انهما سواء في الحد والحقيقة، فاذا مرت عليه برهة من الزمان، او امتحنه ذو الخبرة والمعرفة بحاله انكشف محاله وتبين محاله (المحال الحيلة والمحال: المستحيل الباطل غير الممكن الوقوع انظر تفسير الطبري 13/ 484 والمصباح واللسان حول).

ومن هذا الكيمياء التي راج امرها على كثير من الناس وعظم داؤها، واعيا الا على الباء الاطباء دواؤها (الاصل دواها والمثبت اشبه بالفاصلة)، ولم ازل بحمد الله لهجا ببيان ابطالها وتبيين زغله ا (الزغل الزيف والغش انظر شفاء الغليل 166 وتاج العروس زغل) ومحالها، وناظرت فيها غير واحد ممن افنى فيها اكثر اوقاته، وضيع عليها جل نفقاته، في مكة وغيرها، (وقعت للامام ابن القيم مناظرات بمكة وغيرها حكى بعضها في كتبه انظر مفتاح دار السعادة 2/ 657 وبدائع الفوائد 4/ 1606 والتبيان في ايمان القران 270 والصواعق المرسلة 1/ 135 و 2/ 667 وهداية الحياري 200 وزاد المعاد 3/ 808) فلما بينت له الادلة الشافية على بطلانها رأيت السرور قد اشرق في وجهه، وقال: اراحك الله وجزاك خيرا، او كما قال، فلقد قلت الحق.

فصل

والكلام فى هذه فى طرفين

.أحدهما: أنها باطلة طبعا

.والثاني: أنها محرمة شرعاً

فأما الفصل الاول: فالقول ببطلانها قول اكثر العقلاء (العبارة في الاصل: فاما الفصل الاول فهو قول اكثر العقلاء واصلحت في الطرة الى المثبت، وكأن ذلك من المصنف حين قرئت

الرسالة عليه) من طوائف الناس من المتكلمين والاطباء والفلاسفة وغيرهم، (مضى في الدراسة ذكر طائفة منهم ونصوصهم) وهو قول ابن سينا، وابي البركات البغدادي (هبة الله بن علي بن ملكا، توفي في سنة نيف وخمسين مئة، وقيل قبل ذلك، الطبيب الفيلسوف. انظر صوان الحكمة 346 اخبار الحكماء للقفطي 460 والسير 20/ 419) ولمحمد بن زكريا (ابي بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي الطبيب الفيلسوف، ملحد في الالهيات والنبوات ناصر للقول بالقدماء الخمسة توفي سنة 313. انظر طبقات الاطباء لابن جلجل 77 وطبقات الامم لصاعد 53 وبغية الطلب لابن العديم 3/ 1345 ومنهاج السنة 2/ 572 ودرء التعارض 9/ 346 وبيان تلبيس الجهمية 1/ 477 واغاثة اللهفان ومدارج السالكين) فيها قولان (لم اقف من كلامه على ذلك صريحا الا ان يكون مأخوذا من قصة انكاره معرفته بالكيمياء حين سأله عنها وزير الري كما في العيون الانباء 419 او من قوله للطبيب الذي ابى ان يعالجه من رمد عينيه الا بخمسمئة دينار، فدفعها اليه وقال هذا هو الكيمياء لا ما اشتغلت به قالوا فترك صناعة الاكسير واشتغل بعلم الطب كما في تتمة صوان الحكمة 21) قال ابو البركات في كتاب المعتبر واما (في مطبوعة المعتبر والى) اخر ما انتهى اليه النظر في العلم الطبيعي لم يحصل للناظر فيه ولا في المسطور (في مطبوعة المعتبرة المنظور) منه ما يحصل به عمل الكيمياء، بل ما يبعده ويبطله ويؤيس الطامعين فيه منه، والاصول العلمية (في مطبوعة المعتبر) (وان كان لصناعة الكيمياء اصل من جهة التوقيف والتجارب فلا حاجة لها الي شئ مما قيل من العلم، بل الاصول العلمية) التي دلت (في مطبوعة المعتبرة قيلت) تدل على انها لا اصل لها ولا حقيقة (المعتبرة 2/ 232). وهذا من افضل المتأخرين، وهو الملقب بأوحد الزمان (هو فيلسوف الاسلام في وقته كما يقول المصنف في اغاثة

اللهفان، من اعظم الفلاسفة المتأخرين قدرا واقربهم الى الحق واتباع الحجة الصحيحة بحسب نظره والعدول عن تقليد سلفهم، كما يقول ابن تميمة انظر (بيان التلبيس الجهمية) 2/ 298 و 5/ 240 و (منهاج السنة) 1/ 384 403، (والرد علي المنطقيين) 336 (ومجموع الفتاوي) 2/ 205 16/ 338 وقال ابن سينا يمكن ان يصبغ النحاس بصبغ الفضة، والفضة بصبغ الذهب وان يزال عن الرصاص اكثر ما فيه من النقص. فأما ان يكون الفصل المنوع يكسى او يسلب فلم يظهر لي امكانه بعد، اذ هذه الامور المحسوسة يشبه ان لا تكون هي الفصول التي بها تصير هذه الاجساد انواعا، بل هي اعراض ولوازم وفصولها مجهولة، واذا كان الشيء مجهولا كيف يمكن قصد ايجاده او افنائه؟! (الشفاء قسم الطبيعيات المعادن والاثار العلوية 23 والمصنف ينقل بواسطة المباحث المشرقية للفخر الرازي 2/ 214 وقد لخص صدر كلام ابن سينا ولم يسقه بلفظه وسيأتي نص كلامه في الدليل الثامن عشر).

وقال ابن زكريا الرازي اختلف الناس في الصناعة المسماة عند اهلها بالحكمة، وعند الناس بالكيمياء، فأثبت كونها قوم، ومنعها قوم، واجازها قوم اخرون (لابي بكر الرازي تصانيف كثيرة في الكيمياء اثباتا ونقضا على المخالفين، كما قال في سيرته الفلسفية (109 - رسائل فلسفية) وهو يذكر تصانيفه وكتبنا في صناعة الحكمة التي هي عند العام الكيمياء وتقدم الكلام عليه مبسوطا في الدراسة ولعل النقل هنا من كتابه في الانتصار للكيمياء او كتابه في الرد على الكندي) وسيذكرهما المصنف فى الدليل الثالث والعشرين يعني انهم ذهبوا الى امكانها وان لم يجزموا بكونها.

واعلم ان قدماء الفلاسفة واساطينهم وفضلاءهم لم يتعرضوا لها بذكر ولا نبزوا (كذا في الاصل بالرزاي موضع السين، اي لم ينطقوا بكلمة نبس ينبس اذا تكلم وتحركت شفتاه بشيء، واكثر ما يستعمل في النفي، كما في التاج نبس وغيره. وهو استعمال نادر جدا لم اره عند غير الامام ابن القيم، ووقع كذلك في موضع اخر من كتبه في زاد المعاد 6/ 141 في جميع اصوله الخطية وهذا كالختم على صحة نسبة الرسالة اليه رحمه الله تعالى، كما مر) فيها بكلمة، هذا وهم اصحاب الافكار العميقة والتعاليم والاراء التي يثني عليها اتباعهم، وانما يوجد الكلام في هذه المسألة في كتب بعض المتأخرين رأيا منه لا نقلا عن احد من اساطين الفلسفة.

وهذه كتب ارسطو والاسكندر، وكتب بقراط، وكتب جالينوس، وكتب ثامسطيوس (مفسر كتب ارسطو، وكان كاتب اللوليانس المرتد الى مذهب الفلاسفة عن النصرانية بعد جالينوس، كما فى الفهرست (2/ 1/176)) وكتب افلاطن، وغيرها هل يوجد فيها اثبات هذه المسألة؟ وقد اتعبوا افكارهم فيما هو دونها من دقائق الطبيعة التي لا نسبة لها الى مسألة الكيمياء، فلو كانت صحيحة كما يقوله هؤلاء لكان الاقدمون اسبق اليها واقوم بها علما وعملا (قال موفق الدين البغدادي على لسان الحكيم في رده على الكيميائي دعواه اشتغال الفلاسفة والحكماء بالكيمياء لقد اتيت بأعظم الشبه واقوى موجبات الغلط وادعى شيء الى اعتقادها وطلبها وتعظيمها ونحن نقول في ذلك قول من نقب وجرب وقلب تصانيف الناس بطنا وظهرا ... اما فيثاغورس فليس له تصنيف موثوق به ولا قول صريح ينسب اليه واما كتب افلاطن فهي نيف وخمسون كتابا ... وليس فيها للصنعة ذكر بتصريح ولا تعريض واما كتب ارسطوطاليس فهي ايضا منتظمة محررة له رسائل متبددة وكلها

محصورة وقفنا على اعيانها وتدارسناها ووصل الينا من النقلة والتراجمة اخبار الباقية وليس فيها ولا في شيء منها للصنعة حديث بوجه من الوجوه ثم ان الشراح لكتبه قد طولوا وبسطوا واتوا بالضروري وما لا يكاد يحتاج اليه وحكوا من سيرة الحكماء الاقدمين ومذاهبهم اقصى ما يمكنهم ومع هذا كله فانه لم يعرض في شيء مما اعتقدوه او حكوه او ناقضوه ذكر للصنعة بشفة ولا لسان لا بابطال ولا باثبات ... وهذا جالينوس المتأخر الزمان مع سعة كلامه وكثرة تصانيفه واخذه في اساليب القول ... فلم يذكر صنعة الكيمياء ولا ضرب بها المثل ولا ساق في حكاية عن احد من اهل زمانه ما يقتضي ان لها ذكرا عندهم ولا انها معروفة بينهم. المجادلة بين الحكيمين 80/ 83) وذكر هذا المعني (فى (57/ 59

والمتصفون من اهل الصنعة يقرون بهذا وان كانوا لا يرونه حجة بمفرده، كما من ينكر هذه الصناعة: (وانك جعلت اقوي شواهدك على بطلان هذا النوع من من احصاه منهم فى اقسام العلوم فقد احصاه فى جملة علوم مختلف فيها ... ، وجلعت كسور اذهان علمائك والمبرزين فى سائر فنون الحكمة كارسطو وتلامذته ومن حذو حذوهم من الاسلاميين عن حل رموزهم واخراج غوامض اعمالهم اقوي حججك فى انكار هذا النوع، وقلت ما بال فلان وفلان ومن عاداهما قدروا على معرفة العلوم الشريفة، واستخراج المعاني العويصة، لم يقدروا على معرفة هذا الفن الذي هو بالاضافة الى العلوم الكلية والجزئية جزء حقير وطرف يسير.

وذكر هذا المعني ايضا فى صدر رسالته (حقائق الاستشهادات) (ق 180/و) على لسنا سائله، فقال: (وذكرت ان اكثر الحكماء المشهود لهم بالتدبير فى اتقان هذا العلوم، كافلاطون وارسطو قديما، وفارابي وابي على ابن سينا حديثا، متوقفون عن اثباته

ومعروض عن ذكره، وكأنهم الى نفيه اسرع منهم اي اثباته، ويكاد اجماع المعتبرين يقع على امتناعه).

وذكر الفارابي فيما نقله عنه ابن باجه فى بعض تعاليقه ان ارسطو بين فى كتابه فى المعادن ان صناعة الكيمياء داخلة تحت الامكان، الا انها من الممكن الذي يعسر وجوده بالفعل، اللهم الا ان يتفق قرائن يسهل بها الوجود. انظر: (الغيث الذي انسجم) للصفدي (1/ 80). ونقله كذلك عن الفارابي عز الدين ايدامر الجلدكي في (الدر المكنون) (ق 66/ ب). وللفارابي (مقاله فى وجوب صناعة الكيماء والرد على مبتليها)، ذكرها له ابن ابي اصيبعه فى (عيون الانباء) (609)، ونشرها بعض المستشرقين وقد عول فيها كما يقول سذكين (على الكتاب المزيف من كتب المعادن الذي يعزوه الشراح اليونان الى ارسطو طاليس او Theophrast) وفى نسبه ذلك الكتاب الى ارسطو شك كبير، قال البيروني فى (الجماهر) (41): (ما اظنه الا منحولا عليه)، وزيف نسبته اليه غير واحد من المستشرقين المشتغلين بتاريخ العلوم. انظر: (تاريخ التراث العربي) لسزكين (147□ 151□ 429 - المجلد الرابع، السيمياء والكيمياء)، و (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوي (289)، و (قصة الحضارة) (17/ 184)، و (دائرة المعارف الاسلامية) (1/ 614)، و (الاصول العربية لتراث العرب فى علم المعادن) لمصطفي يعقوب عبد النبي (مجلة العرب، المجلد 50، الجزء 11 - 12، الجماديان 1436، ص 664 - 667).

وينسب الى افلاطون كتاب فى الكيمياء يسمي (الروابيع) وهو منحول عليه.

انظر: (الافلاطونية المحدثة عن العرب) لعبد الرحمن بدوي (42 - 44)

اذا عرف هذا فالدليل على بطلانها من وجوه كثيرة:-

احدهما: ان الذهب والفضة لا يكون (كذا في الاصل حملا للمثنى على المفرد من الحمل على المعنى وهو كثير في كلام العرب وكثير في كتب المصنف وكثير تغييره من الناشرين) انظر نماذج منه فى (اعلام الموقعين) (1/ 376 - 2/ 154 516) وزاد المعاد (1/ 278 544) بالصنعة اصلا لان الصنعة انما سلكانها على توليد الاعراض، لا على تحميل الجواهر وايجادها، وهذا معنى قول من قال من الفلاسفة الذهب والفضة لا يكون بالمهنة اذ المهنة انما تعمل في الاعراض لا في الجواهر.

الدليل الثاني: ان الله سبحانه لم يخلق شيئا يقدر العباد على ان يخلقوا مثل ما خلق وما (الاصل وبما والمثبت اقوم) يصنعونه بمهنتهم واقدار الله سبحانه لهم عليه فانه لم يخلق مثله كما يخلق سائر الجواهر (قال شيخ الاسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية 230) فانه سبحانه خلق الشمس والقمر والنجوم والافلاك والعناصر والحيوان والمعادن والنبات ولم يجعل لاحد قدرة على خلق مثله واقدر عباده على صنعة اللباس والاطعمة والكتابة والالات وسائر مصنوعاتهم، ولم يوجد في مخلوقاته ثيابا مفصلة مخلوقة بقدر العضو مخيطة ولا اطعمة مطبوخة مركبة كتركيبهم ولا بيوتا مبنية كبنائهم ولا ورقا مكتوبا مثل كتابتهم (انظر مجموع الفتاوى) (29/ 369 388 390).

وهذا معنى قول من قال من عقلاء الفلاسفة وغيرهم واعلم ان الصناعة لا تعمل عمل الطبيعة والطبيعة لا تعمل عمل الصناعة (وعلى هذا بنى يعقوب بن اسحاق الكندي الفيلسوف رسالته في ابطال الكيمياء لتعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله، انظر

مروج الذهب (5/ 159)، -وتثبيت دلائل النبوة-سرح العيون لابن نباتة) (225) فلو اجتمع اهل الارض على ان يخلقوا حبة او ذرة او قطرة ماء لم يمكنهم ذلك فكيف باكسير العالم (وما هو من اشرف جواهره؟! (قال المصنف في الطرق الحكمية ولهذا كانت المصنوعات

الدليل الثالث: انه لو جاز ان يوجد بالصنعة ما هو موجود بالخلقة لجاز ان يوجد بالخلقة ما هو موجود بالصنعة، فكان يوجد في الخلقة دراهم مضروبة، وسيوفا محلاة مودعه في اغمادها، وثيابا (كذا في الاصا والجادة وسيوف وثياب الا ان يكون الفعل مبنيا للمعلوم) مخيطة مفصلة وهذا باطل باستقراء العالم وما فيه من المخلوقات (انظر المباحث (المشرقية والغيث الذي انسجم

الدليل الرابع: ان تركيب الذهب والفضة وايجادهما على ما هما عليه من الطبيعة والكيفية والخواص يستدعي معرفة الطبيعة التي بها قوام هذين الجوهرين وصفاتهما وكيفياتهما .وخواصهما وسائر احوالهما

وطبائعية العالم وحذاقهم جاهلون بذلك، عاجزون عن معرفة بعضه المعرفة التامة، بل .المجهول لهم من ذلك اضعاف المعلوم منه

ولا ريب ان من جهل تركيب الشيء في نفسه وخواصه وفصوله وصفاته لم يتهيأ له ان يركب مثله اصلا، وهذا كمن جهل مفردات دواء من الادوية المركبة وكيفياتها وكيفية تركيبها وخواصها فانه يستحيل ان يركب مثله، مع ان تركيب مثله هو من مقدورات البشر، فكيف بتركيب مثل هذين الجوهرين ممن لا علم له بفصولهما وخواصهما؟! وهكذا من جهل تركيب كلمات مركبة من حروف مخصوصة كيف يمكنه ان يركب امثالها؟! وكذلك

من جهل تركيب الاطعمة واللباس والابنية وفصولها وخواصها ونسبة بعض اجزائها الى بعض كيف يمكنه ان يركب مثلها؟!

وهذا الدليل تركيبه على ثلاثة اوجه:-

- احدهما: على وجه الكمية، وان الجهل بها يستلزم العجز عن تركيب مثلها.

- الثاني: من جهة المادة والعنصر، وانهما مجهولان عند الناس، فكيف يمكنهم تركيب مثله؟!

- الثالث: من جهة الحال والكيفية بأن لها احوالا وكيفيات مجهولة عند البشر فلا يمكنهم تركيب مثلها (انظر المعتبر لابن ملكا والمباحث المشرقية وقال ابن خلدون في المقدمة عن هذا الدليل بعد ان لخصه هذا محصل هذا البرهان، وهو اوثق ما علمته، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته، ولا من الطبيعة، انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها، وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك).

الدليل الخامس: ان هذين المعدنين لهما اماكن طبيعية يتكونان فيها بقدرة الرب جل وعلي وبين معادنهما وهي لهما بمنزلة الارحام للحيوان التي يتخلق ويتكون فيها، فمن تولدهما في غير مكانهما ومعدنهما فهو كمن ادعى تكون الحيوان الذي لا يتكون الا في الارحام في امكنة غيرها (انظر المعتبر والمباحث المشرقية ورسالة في المعادن وابطال الكيمياء لموفق الدين البغدادي 132) وهذا باطل ومحال.

فان الله سبحانه قد جعل بحكمته تكون هذه الجواهر وغيرها من الحديد والنحاس والرصاص في معادن مخصوصة من الارض واماكن متهيئة لقبول مثلها كمواضع

مخصوصة من بطون الجبال والمواضع الصلبة المستحصفة (الشديدة المستحكمة) الحافظة لتلك الجواهر كالارحام للاجنة والتربة المخصوصة للنبات المخصوص دون غيره.

والجواهر المتكونة في معادنها المخصوصة للمناسبة والقوة التي جعلها الله بينها وبينها لا تتكون في غيرها اصلا فلا يتكون الحديد والذهب والفضة في الارض الرخوة اللينة النباتية (مهملة في الاصل ولعل الصواب ما اثبت) ابدا كما لا يتكون النبات في معادن هذه الاشياء، بل اختصاص معادن هذه الجواهر بها اعظم من اختصاص امكنة الحيوانات والنبات بها فانها لا تتوالد اشخاصها فيها كما لا تتوالد افراد النبات والحيوان في اماكنها ((انظر الجديد في الحكمة لابن كمونة

ثم ما يكونه الله سبحانه في المعدن منه ما يطول زمان تكونه ومنه ما يقصر وعلى حسب الزيادة والنقصان في زمن التكون يكون بقاء الجوهر وصلاحه في نفسه ونفاسته تبعا لقوة مزاجه وضعفه وصلاح ما منه المزاج واعتداله، ولهذا كان في المعدنيات النفيس والخسيس وبين ذلك (قال موفق الدين البغدادي في رسالته في المعادن وابطال الكيمياء يعد ان ذكر ان المعادن لاصناف المعدنيات بمنزلة ارحام الحيوان فان كل معدن شأنه او يولد نوعا يختص به لا يتكون فيه غيره حتى انه ان القي فيه حيوان) هذه حكمة الخلاق العليم وتقديره وصنعه.

فكما لا يتكون الحيوان في موضع النبات ولا النبات في موضع الحيوان ولا الجواهر في موضعهما ولا هما في موضع الجواهر حفظا لكل من ذلك اصله ومحتدة ومشاكلة لامه

التي ولد منها فكيف يتكون بشيء من ذلك بصنع الادمي وحيلته؟! هذا مما لا يشك فيه عاقل بعد تصوره التام والحمدالله رب العالمين.

الدليل السادس: دليل الزمان (انظر المباحث المشرقية) وهو ان هذه الجواهر تتم وتكمل في معادنها في زمان لا يعلم البشر قدره ولا يحصون طوله وقصره فكيف يمكنهم تكوينه مع جهلهم بزمانه الذي لا يتكون الا فيه.

ولهذا لم ير قط جنين ادمي كمل في اربعة اشهر مثلا (قال المصنف في التبيان في ايمان القران واما اقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على انها ستة اشهر) ولا وردة خرجت والشمس في الجدي او في السرطان في البلاد الحارة والباردة ولا فاكهة صيفية تكونت في زمن الشتاء وبالعكس ولا حنطة وغيرهما من الحبوب تكون (الاصل يكون والمثبت اشبه) في شهر واحد، فاذا كان كيفية الزمان وكميته الذي يتكون فيه الذهب والفضة مجهولين عند البشر فكيف يمكنهم تكوينه؟!

الدليل السابع: ان الاشياء التي يدعي الكيمياويُّون تكوُّنَ الذهب والفضة منها اشياء تخالف بعضها بعضا في النَّوع والماهيَّة ومعلوم بصريح العقل ان الاشياء المختلفة بالنوع والماهية لا يتحول بعضها الى بعض كما لا يتحول الماء حديدا ولا الفضة قمحا ولا القمح عدسا ولا الجمل فرسا (انظر مجموع الفتاوي 381 383).

وان شئت تركيب (الاصل: (تركب) والوجه ما أثبتُّ إلا ان يكون قد سقط قبله (أن) وتقدم قوله (وهذا دليل تركيبه على ثلاثة اوجه) هذا الدليل على وجهٍ اخر فتقول:-

فصول الانواع مقومات لماهياتها ومُقسِّمة لاجناس تلك الانواع فيستحيل ان يخرج الفصل المقوِّم للنوع المقسِّم لجنسه عن حقيقته فلا يبقى مقوما ولا مقسما كما لا يخرج فصل الانسان وفصل النبات وفصل الحيوان - بل وفصل كل نوع -عن حقيقته، فينقلب المعدن نباتا والنبات معدنا وهما حيوانًا وتنقلب الانواع بعضها الى بعض.

فعُلِمَ انه ليس بأيدي القوم الا صبغة صناعية، لا ماهية حقيقية، وليس ذلك الا بيد من بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير {انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون} سورة يس اية 82.

الدليل الثامن: ان الكيمياويين يزعمون انهم يجمعون بين جوهرين او جواهر بالنار فيتَّحد بعضها ببعض، وتصبغ به، ولا تفرقها النار بعد اجتماعها واتحادها ابدا بل يبقى اجتماعُها ما بقي ذلك الجوهر.

وان كان مثله في الصبر على النار فلا يتفق شيئا في البقاء على النار الا بتساوي جوهريهما، فاذا استوى جوهراهما لم يكن احدهما صابغًا والاخر مصبوغًا (1)

الدليل التاسع: أن هذه الصِّناعة لو كان لها حقيقةٌ لمَا أغفلها أفاضلُ الفلاسفة المتقدِّمين ذوي الفِطَن العميقة و الأفكار الدقيقة، ولو وَضَحت وتَحقَّقت عند احد منهم لدَّونوها كما دوَّنوا سائر العلوم التي نقلت عنهم كالهندسة والطب والنجوم والرياضيات وغيرها من

العلوم العقلية بل الواجب ان يكونوا بهذه الصِّناعة اعلم، وبها أهممُّ، فأما وكتبُ القوم صِفرٌ من ذلك فما هو الا لمعرفتهم بأنها زَغَلٌ وباطل (2)

الدليل العاشر: ان جميع العلوم الاصلية الحقيقية كالحساب والهندسة والطب وغيرها لها مداخل يُدخَل اليها منها ورسوم تجري عليها واوضاع واصول يرجع فيها اليها وليس لصناعة الكيمياء مدخل يدخل اليها منه، ولا رسم ولا اصل ولا كتب موضوعة على اصل صحيح كسائر العلوم التي يُنْتَقَل من مبادئها ومقدماتها الى العلم بها ومعرفة صحتها، وانما بيد اصحابها دعاوٍ خالية من البرهان وحكايات اكثرها من باب الهذيان، والأمر بأعمال لا وثوق للآمر ولا للعامل بشيء منها كقولهم: خذ كذا فاعمل به كذا واصبُغه بكذا وأضِفه الى كذا فيكون منه كذا وكذا، وحدَّث فلان أنه عمل كذا وكذا فصار كذا وكذا وقارونُ كانت كنوزُه

(1) (انظر مباحث المشرقية قال الصفدي في الغيث الذي انسجم وهذه الحجة من اقوى حجج المنكرين)
(2) تقدم الكلام على عدم ذكرها عند فلاسفة اليونان، وانظر لمن بعدهم من كبار فلاسفة الاسلاميين وغيرهم من (المتكلمين: (المجادلة بين الحكيمين) للموفق البغدادي (83 - 92

من صناعة الكيمياء، وفلان ثمَّر مالا كثيرا منها ونحو ذلك من الاماني الباطلة والحكايات التي هي بين مكذوب باطل وواقع لكنه زغلي (1) حاذق في الزَغَل صُفِّر تصفيرةً مُحْكمَة يطول زمن من استتار زغلها، وليس بأيدي القوم غير ذلك البتة، ولكن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور (2)

الدليل الحادي عشر: أن هذه الصناعة لو كانت صحيحة كما يزعم اصحابها لكان الطالبون لها على شدة طلبهم وطول شقائهم وقلة فتورهم واتصال اجتهادهم وبحثهم وامتحانهم ونفقاتهم عليها قد ادركوها؛ فان الصناعات الدقيقة الصعبة على الأفهام في الغاية اللطيفة جدا والعلوم الغامضة البعيدة العَسِرة على الخلق قد أدركه (3) الطالبون له قدرةً وعلمًا، وصدَّق بعضهم بعضا في اصول ذلك العلم واكثر مسائله، كأصول الهندسة والحساب والهيئة وغيرها، ولا يزال احدهم يزداد فيها قوة وبصيرة وشرحا وبيانا وايضاحا بأنواع الادلة؛ لان الشئ اذا كانت مادَّتُه واصله صحيحا تظافرت الادلة الدالة على ثبوته وصحَّته لان الحق يُصَدِّق بعضه بعضا، واذا كان باطلا لم يقم دليل واحد على صدقه، وكلما شَبَّصَ له اصحابه شبهةً ظهر فسادُها على محك البرهان (4).

(1) مغشوش مزيَّف
(2) انظر: (المقدمة) لابن خلدون (2/ 430 436).
(3) أي العِلم. انتقل من الجمع الى المفرد
(4) شبَّص الشيءَ اصلحه قليلا، من كلام العامة، كما في (محيط المحيط) (شبص). والكلمة مضبوطة مجودة في الاصل، وهي نادرة الاستعمال.

وترى طالبي الكيمياء على فرط اجتهادهم وجِدِّهم لم يَحْصُل في ايديهم منها الا الخيبة والحرمان والنَّدب والنياحة والكآبة المترادفة والاحزان المتواصلة (1)

(1) يقول ابن خلدون في (المقدمة) (2/ 430): (مع أنا لا نعلم ان احدا من اهل العالم تم له هذا الغرض او حصل منه على بغية، إنما تذهب اعمارهم في التدبير والفهر

والصَّلايا والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار لجمع العقاقير والبحث عنها، ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممَّن تمَّ له الغرض منها أو وقف على الوصول، يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها، ولا يستريبون في تصديقها، شأن الكَلِفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يَكْلَفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروا وقالوا: إنما سمعنا ولم نر! هكذا شأنهم في كل عصر وجيل.

و يقول في (2/ 436): (وأما الكيمياء فلم يُنْقَل عن أحدٍ منأهل العالم أنه عثَر عليها ولا على طريقها. وما زال منتحلوها يخطبون فيها عشواء إلى هَلُمَّ، ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة. ولو صحَّ ذلك لأحدٍ منهم لحفظه عهنه ولده أوتلميذه أو أصحابه، و تُنوقِل في الأصدقاء، وضمن تصديقه صحَّة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا

وانظر في كلام أبي حيان في (الهوامل والشوامل) (325) عن حلاوة حكايات الوصول إلى الكيمياء والتذاذ الناس بها!

مُفْنٍ على الغَيِّ و الخسران ان مُهْجَتَه ... حيرانَ يسألُ عنها كلَّ حيرانِ

(يغدُو من الحرص في ثوبين من طمعٍ مطرَّزين بخذلانٍ وحرمانِ [1]

الدليل الثاني عشر: ان تحويل الفضة او النُحاس ذهبًا اما ان يكون متضمنًا لاعدام جوهر النحاس والفضة واحداث جوهر الذهب انشاءً وايجادًا، أو لا يكون متضمنا للإعدام والإيجاد لكن ذلك تحويل عين الى اخرى وقلب طبيعة الى غيرها، مع إن الوجود لازمُ لهما في الحالين معًا.

فان كان الاول فمعلوم ان الجوهرين مختلفان بذاتهما، فاذا انتقل احدهما الى الآخر لم يكن ذلك مع بقاء المخالفة، بل لا بدَّ ان تزول المخالفة وتحدث الموافقة، ويستحيل ان يكون المخالف للشيء مواقفا له مع قيام سبب المخالفة وهذه المخالفة بينهما هي قِوَام الجوهر الذي به خالف الآخر فلا يصير موافقا له الا ببطلان هذا الخلاف الذي هو قِوَام ذاته وحقيقته وحدوث وفاقٍ يكونُ به قِوَام حقيقتهما، ولا يقدر على ذلك الا الله سبحانه مخترع الأعيان ومعادنها.

وإن لم يتضمن ذلك اعداما وايجادا، بل نقلا وتحويلا فأيضا قدرة البشر تعجز عن ذلك، بل لا

(1) يقول ابن خلدون في المقدمة مع انا لا نعلم ان احدا من اهل العالم تم له هذا الغرض او حصل منه على بغية انما (تذهب اعمارهم في التدبير والفهر والصلايا والتصعيد والتكليس واعتيام الاخطار لجمع العقاقير والبحث عنها.

يقدر على ذلك الا من يَقْلِبُ الاعيان بعضها الى بعض، كما يقلب البيضة فرخًا والنواة شجرة وكما قلب العصا حية وبعض الآدميين قردة وخنازير وحجارة، وكما يقلب النطفة جنينًا، ولا يقدر على ذلك الا رب العالمين وحده لا شريك له فمن ادَّعى صلاحية القدرة المخلوقة للبشر على ذلك فقد كذب وافترى وجاهر بالوقاحة والجرأة (1)

الدليل الثالث عشر: أن قلب جنس من الملخلوقات الى جنس آخر، كالجماد حيوانًا، وبعض جنس الحيوان الى جنس آخر، إنما هو فعل من افعال الله يُظْهِرُه على يد بعض انبيائه احتجاجًا به على خلقه، كسائر الافعال الناقضة للعادة، ولا يجوز في حكمة الله تعالى ان يجعل الاشياء التي ثبتت بها حجته على عباده مقدورةً لهم يمكنهم ايقاعُ مثلها بالصناعة والمُزَاولة فتبطل حجَّته، ويقع فيها اللَّبس (2).

ولهذا لو اجتمع الخلائق في صعيد واحد وأُعْطُوا نهاية القدرة الصالحة لهم، لم يقدروا أن يقلبوا عصا من العِصِّي حية او حيوانا غيرها بل ولا ان يقلبوا الخردلة مثلا برغوثا، ولا ان

(1) انظر: رسالة (مراتب العلوم) لابن حزم (4/ 62 - رسائله) و (المباحث المشرقية) للرازي (2/ 215 216).
(2) قال مسكويه: فأما المتكلمون وطبقاتهم من اصناف الناس فمجمعون على إبطالها لانهم يزعمون أن في ذلك إبطال معجزات الانبياء صلوات الله عليهم، اذ كان ما يدَّعونه قلب الأعيان وهو لا يصحُّ عندهم إلا على يد نبي حسب، وإن الله عز وجل هو القادر على قلب الاعيان دون مخلوقيه (الهوامل والشوامل) (327).

يُخرِجوا من بطن الارض ناقة من غير فحل ولا ام بل تكوَّنت في جوف الارض ولا ان يشقوا القمر بنصفين، ولا ان ينفخوا في طين كهيئة الطير فيصير طيرا ولا يبرئوا الاكمه والابرص.

فقلب النحاس والرصاص ذهبا هو من هذا الجنس الخارج عن مقدور الداخل في معجزات الانبياء صلى الله عليهم وسلم ولم يعط الله نبيًّا من الانبياء معجزة فقدر البشر ان يأتوا بمثلها ابدا، لكيلا تبطل حجج الانبياء وبيِّناتهم.

ولا ريب ان قلب النحاس الى الذهب هو من جنس المعجزات ولهذا لمَّا علم بعض عقلاء الكيمياويين ذلك نسبوا هذا العلم الى الانبياء تارة والى الاولياء الذين يكون عليهم نوع من خرق العوائد تارة حتى احتَّج بعض اوقاحهم بأن قال في كتابه: (إن الخبر الشائع الذائع الذي لا يجوز عليه التواطؤ والتظاهر جاء بأن موسى كان يعلمها) (1)

(1) من اقدم من نسب علم الكيمياء الى موسى عليه سلام: الحكيم الترمذي في (النوادر الاصول) (4/ 10 11)، وحكاه بلاغا عن ابن عباس رضي الله عنه في خبر اسرائيلي من طريق جويبر عن الضحاك. وجويبر متروك الحديث ليس بشئ، كما في (الميزان) (1/ 391)، إلا أن في الطريق إليه آفة أخرى، فإن الغالب أنه من رواية أبي حذيفة البخاري صاحب كتاب (المبتدأ) كما في (تاريخ دمشق) (61/ 94)، وهو كذابٌ متروك كما قال الدارقنطي وغيره، انظر (لسان الميزان) (2/ 44). ونسبه الثعلبي في (الكشف والبيان) (20/ 501) إلى سعيد بن المسيب دون إسناد. قال أبو حيان في (البحر المحييط): (ولعل ذلك لا يصح عنه ولا عن إبن المسيب). وحكى نديم في (الفهرست) اختلاف أهل صناعة الكيمياء في ذلك، فقالت طائفة منهم: (إن ذلك كان بوحي الله جلَّ اسمه إلى جماعة من أهل هذة الصناعة) وقال آخرون: (كان هذا بوحي من الله إلى موسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام، وإن الذي كان يتولى ذلك لهما قارون، وإنه لمَّا كثر ما عنده من الذهب و والفضة كنَز الكنوز، وإن الله تعالى لما رآه تجَّبر وتكَّبر وسَطَا بما عنده م الأموال أخذه بدعاء موسى عليه).

قال شيخ الإسلام في (السياسة الشرعية) (330): (وم ادعى على النبي صلى الله عليه وسلم أو على موسى عليه السلام أنه كان يَعْملها أو يُعَّلمها فقد كذب وافترى)، وسيأتي تكذيبه كذلك فيما ينقله المصنف.

وقال بعضهم: (هذا العلم لم يكن بعد الانبياء الا في الائمة المعصومين المأمون مهنم اظهارُها وإفشاؤها للجمهور؛ لما فيه من فساد العالم، وإنهم لِعصمتهم ومعرفتهم بالناس خَصُّوا

بتعليمها بعض المتصلين بهم من الحُجَج والدُّعاة والابواب، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق ان لا يفشوها للجمهور ويبدوها لهم لما يُتَوقَّع في ذلك من الفساد.

فممَّن نسبوا علمها إليه من الائمة: امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه (1).

قال صاعد (2) في (تاريخ الحكماء والفلاسفة) (3): (ومن المشهورين بصناعة الكيمياء جماعة اولهم علي بن ابي طالب، يحمل اهل الصناعة عنه فيها رسالة صغيرة نحو ورقة تضمنت رموزا مستغلقة).

وذكر منهم: جعفر بن محمد الصادق ثم قال: (وهو اعلم اهل البيت الكريم بالصناعة واشهرهم بانتحالها).

نسب الطغرائي وابن شهر آشوب في (المناقب) (4/ 158) رواية مختلفة بلا إسناد إلى علي رضي الله عنه أنه (سئل عن الصَّنعة، فقال: هي أخت النبوَّة، المروَّة، والناس يتكلمون فيها بالظاهر، وإني لأعلم ظاهرها وباطنها، هي والله ما هي إلا ماء جامد، وهواء راكد، ونار جائلة، وأرض سائلة)،و أنه سئل في أثناء خطبته: هل الكيمياء يكون؟ فقال: هو كائن وسيكون، فقيل: من أي شئ هو؟ فقال: إنه من الزئبق الرجراج، والأسرب الزاج، والحديد المزغفر، وزنجار النحاس الأخضر ...) إلى آخر هذا الكذب.

أقحمت في الاصل (ابن) قبل (صاعد)، وسيأتي على الصواب. وهو القاضي المؤزخ ابو القاسم صاعد بن احمد بن عبد الرحمن الاندلسي توفي سنة 462. ترجمته في (الصلة) (1/ 321) و (الوافي) (16/ 232).

ويسمى (طبقات الحكماء) و (أخبار الحكماء) و (احوال الحكماء) و (التعريف في احوال الحكماء) ولعله هو (طبقات الامم)، ولم اجد النصوص التي نقلها المصنف فيما طبع منه ولا رأيت من نقلها عنه فهي من فرائد هذه الرسالة.

قال: (وألَّف عليه جابر بن حيان فيها كتابا يشتمل على الف ورقة تتضمن من رسائله خمسمئة رسالة).

ثم ذكر ان من تلامذته جابر بن حيان الصوفي، قال: (ويكنى ابا موسى، واياه يعني في كتبه: وحقِّ سيدي او قال سيدي).

قال: (وإلى جابر انتهى علم الصناعة في الاسلام، وهو نظير روسم (1) من المتقدمين وله في فنونها نحو ثلاثين تأليفا تحتوي على قريب من ثلاثة آلاف ورقة كلها رموز مُضِلَّة (2) لا يهتدي للحق منها الا من رآه الله اهلا للصناعة ومستودعًا لها.

قال: (وأجل تواليف جابر في اصول الصناعة كتاب (الرحمة) (3) فهو على صغره عظيم الفائدة شريف الغرض قريب الاشارة واما كتبه في اعمال الصناعة فأكثرها محرَّف عن طريق الصواب، مقصودُه بجمهوره التلبيس والاغماض).

(1) أو Zosime كذا في الاصل ويرد في المصادر العربية على انحاء وهو باليونانية زوسيموس، فيلسوف عاش بمصر قبل الإسلام، وكان قيِّمًا بعلوم الكيمياء، وله فيها تصانيف مشهورة، ذكره صاعد في علماء مصر القدماء من (طبقات الأمم) فقال: (ومن علمائهم: روسم (تحرف في مطبوعته إلى: ورؤسهم)، صاحب الكتب الجليلة في صناعة الكيمياء). وانظر: (الفهرست) و (الرسالة المصرية) لأبي الصلت أمية (1/ 30 - نوادر المخطوطات) و (أخبار الحكماء)، و (علم الفلك) لنلِّينو و (تاريخ التراث العربي) (104 - المجلد الرابع- السيمياء و الكيمياء)، و (الخيمياء العربية) لجورج قنواني (1096 - تاريخ العلوم العربية).

(2) الاصل مظلة

(3) كتاب الرحمة الصغير وهو مطبوع قال النديم في الفهرست وقال جماعة من اهل العلم واكابر الوراقين ان هذا الرجل - يعني جابرا -لا اصل له ولا حقيقة وبعضهم قال: انه ما صنَّف وان كان له حقيقة الا كتاب الرحمة وان هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه اياها)، ومضى القول في جابر في الدراسة

فتأمل ما في هذا من الكذب والافتراء على رسل الله وانبيائه واوليائه ونسبتهم الى ما نزَّههم الله عنه وبرَّأهم منه فأي حياء اقل واي جرأة اعظم ممن يقول: ان الخبر المستفيض الشائع الذائع الذي لا يجوز عليه التواطؤ ان موسى كان يعملها؟!

فيا عجبا لعاقل تبلغ به وقاحته (1) وجرأته الى هذا الحد؟!

فهل يحل لمسلم ان يتوقف او يشك في كذب هذا على موسى عليه سلام وان نسبة موسى الى ذلك كنسبته الى انه ركب ادوية وتداخين وعقاقير انفرد بعملها، وكان يُظهِر بها ما يظهره لفرعون وقومه، كما يزعمُه من يزعمُه من اعداء الانبياء الذين مضمون قولهم: إن النبي ساحر عليم؟!

واظن هذا الوقح الفاجر رأى في بعض الكتب ان موسى عَمِلها ولعله موسى بن ميمون اليهودي الفيلسوف (2) فظنَّ هذا الجاهل انه موسى بن عمران؛ فان موسى بن ميمون كان من فلاسفة اليهود ورام الجمعَ بين الشريعة الموسويَّة والفلسفة، فأفسد به (اي بذاك الجمع)

(1) رسمت في الاصل: (وقلعته) ولعل الصواب المثبت

(2) ابو عمران اليهودي القرطبي، رئيس اليهود وعالمهم وحبرهم بالديار المصرية. قيل: إنه كان أوحد زمانه في صناعه الطب، متفنن العلوم، وله معرفة جيدة بالفلسفة. توفي سنة 601 ترجمته في (تاريخ الإسلام) و (الأعلام) و للمستشرق اليهودي إسرائيل لفنسون كتاب حافل في سيرته ومصنفاته.

على اليهود بقية ما كان بأيديهم من دين موسى عليه سلام (وهو من ملاحدة اليهود ومتفلسفة أهل الكتاب المتأخرين كما يقول شيخ الإسلام في (مناهج السنة) و (درء التعارض) وذكر في (درء التعارض) أنه في اليهود كالغزالي في المسلمين، من جهة أنه يمزج الأقوال النبوية بالأقوال الفلسفية ويتأولها عليها في بعض كتبه وله كتاب (دلالة الحائرين) قال ابن العبري في (تاريخ مختصر الدول): (و أُكرِه عل الإسلام، فأظهره و أسرَّ اليهودية، ... وكان عالمًا بشريعة اليهود، وصنف كتابا في مذهب اليهود سمَّاه بالدلالة، و بعضهم يستجيده، وبعضهم يذمه و يسميه الضلالة، وغلب عليه النِّحلة الفلسفية، وصنَّف رسالة في المعاد الجسماني، وأنكر عليه مقدَّمو اليهود فأخفاها إلا عمن يرى رأيه، رأيتُ (جماعة من يهود بلاد الفرنج الغتم بأنطاكيا وطرابلس يلعنونه ويسمونه كافرًا

وبالجملة فنسبة الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم الى هذا قدح فيهم ونسبة لهم الى انهم من جملة ارباب التّداخين والتَّعافين والحِبَل والمَخَارق فهل يصدر هذا الا من اعظم اعدائهم الذين يزعمون انهم بلغوا ما بلغوا بتلطفهم في الحِيَل وانواع الصنائع الغريبة العجيبة؟!

وهل يُتَوصَّل الى القدح في الانبياء بأبلغ من هذا الباطل المحال الذي يتضمن جعلهم زَغَلِيَّة محاليَّة طالبين للدنيا متحيِّلين على تحصيلها بكل طريق؟! سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

وكذلك نسبة ذلك الى علي رضي الله عنه وقد نزهه الله من ذلك وباعده عنه وانما هؤلاء الاسقاط الاراذل ينفِّقون محالهم وزغلهم واوساخ علومهم واعمالهم بنسبتها الى من جعل الله له في العالمين لسان صدق ليَنْفُق ذلك باضافته اليهم فيغتر بتلك الاضافة زغل الزغل

وحثالة الخلق ويعتقدون صحة ذلك كما نسبوا الى جعفر الصادق كل رذيلة ومحال وكذب من الكيمياء والقرعة وكتاب الاختلاجات والرعود والبروق والبطاقة والهَفْت والجَفْر والملحمة وعلم احكام النجوم وعلوم التَّعافين والسِّيمياء [1] وكما نسبة الرافضة الى انه منهم وكذلك المعتزلة والقدرية والاتحادية وغيرهم.

ومن له ادنى خبرة بسيرته وسيرة اهل بيته وآبائه رضي الله عنهم بعلم براءتهم ونزاهتهم عن ذلك وان الله صانهم وحماهم عن ما ابتلى به هؤلاء السَّفِل الاراذل [2] وقد خرق بعض هؤلاء الاراذل حجاب العقل [3]، وهتك ستر الحياء، وجاهر بالعظيمة [4]، ونسب رسول الله "ص" الى انه كان يعرف هذه الصناعة وانها كانت في اهل بيته.

وهذه العظائم متى وصل الرجل الى الإقدام عليها فقد كفى الناس مؤونته ونادى بنفسه على نفسه انه من اكذب الناس وافجرهم واوقحهم وأقلهم حياءً واعظمهم طعنا وقدحا في الرسول "ص" واهل بيته.

(1) انظر للتعريف ببعض ما ذُكِر هنا من الاكاذيب: التعليف على (الانتصار لاهل الاثر)
(2) قال المصنف في مفتاح (دار السعادة): (والكاذبون كثيرا ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها الى علي واهل بيته، كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والهفت والكيمياء والملاحم وغيرها فلا يدري ما كُذِب على اهل البيت الا الله سبحانه) وفي (رجال الكشي) و (بحار الأنوار) قال جعفر رضي الله عنه: (إن الناس أولعوا بالكذب علينا!) والآثار عنه في هذا المعنى كثيرة
(3) رسمها في الاصل: (عقد)، والوجه المثبت وانظر (غاية المرام) للآمدي (107)
(4) الفرية العظيمة. انظر: (زاد المعاد) (5/ 524) و (شفاء العليل) (2/ 196)

فليحمد المسلم الله على ان عافاه مما ابتلى به هؤلاء الوقاح الاراذل الذين هم سَقَطُ الناس واراذلهم.

وقد ظن بعضهم ان هذا هو علم الكنوز الذي اوتيه قارون حتى اوتي من الاموال ما أوتِيَ (1) وانه العلم الذي اشار اليه في قوله: {انما اوتيته على علم عندي} سورة القصص اية 78(2)

وهذا كذب مفترى إما منه وإما عليه فان الذي دلت عليه الاية ان قومه لما وعظوه وامروه بالانفاق وطاعة الله اخذته العزة بالاثم فأعجب بنفسه وقال لهم على جهة الرد عليهم والروغان عنهم والاخذ في حديث غير الذي قيل له: {انما اوتيته على علم عندي} (3)

فقال اكثر المفسرين: ادعى ان عنده علما استوجب به ذلك المال وتلك النعمة

ثم اختلفوا في ذلك العلم:

(1) ولِمَا اوتي قارون من تلك الاموال كانت له شهرة عظيمة عند اهل الكيمياء، حتى انهم نسبوا اليه كتبا في هذه الصناعة! انظر: (تاريخ التراث العربي) لسزكين (المجلد الرابع السيمياء و الكيمياء)

(2) ستأتي الإشارة إلى من قال ذلك أو روي عه. وقد ذكر ابن رُشَيِّق في أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية (الجامع لسيرة شيخ الإسلام) أن له تصنيفا في هذه الآية، فلعله من مصادر المصنف فيما يأتي من تحرير الاقوال ومناقشتها.

(3) هذه عبارة ابن عطية في (المحرر الوجيز)، هو مصدرالمصنف في حكاية الاقوال وسياقتها.

فقال بعضهم: هو علم التوراة وحفظُها (1)،وأن المعنى: أن الله كما فضَّلني عليكم بالعلم فضلني عليكم بالمال، فخصَّني دونكم بالعلم والمال. وهذا ضعيف جدًا لا يليق بالآية وسياقها ولم يكن قارونُ أَعلم بني اسرائيل، ولم يذكره الله بعلم ولا ايمان، وانما ذكره بكونه من قوم موسى، ومجرد كونه من قومه لا يدل على انه مؤمن فضلا عن ان يكون عالمًا بل من اعلمهم وانما وصفه الله تعالى بالبغي المنافي للايمان، والتهديد الذي (2) الحقه به انما يلحق امثاله بالكفار لقوله {اولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون} سورة القصص اية 78. ومثل هذا لا يقال لمسلم عاص.

وايضا، فان قصة قارون فيها دليل على انه كان معايدا لموسى ساعيا في أذاه وعَيْبِه عند بين اسرائيل على ما هو معروف في قصته، ومثل هذا لا يصدر عن مؤمن فضلا عن عالم من علماء قومه.

وايضا، فأي دليل يدل على ان قصته كانت بعد نزول التوراة؟!

فعُلم ضعف هذا القول.

وقالت طائفة من المفسرين: انما اراد العلم بالتجارات ووجوه المكاسب وطرق تحصيل الاموال (3) وذلك العلم الذي اختصَّ به دونهم، فكأنه قال: اوتيته بادراكي وسعيي.

(1) انظر: (معاني القران) للزجاج و (الكشاف والجامع لاحكام القران) للقرطبي.
(2) الاصل: (التي، ولعله من سبق القلم.
(3) نسبة الماوردي في ا (لنكت والعيون) والقرطبي إلى عليابن عيسى، وهو الرماني. ونسبه ابن عطية وتبعهأبو حيان إلى أبي سليمان الداراني.

وقالت طائفة اخرى: انما اراد: اني اوتيته على علم من الله وتحصيص من لدنة خصَّني به ومنحني اياه، وهذا قول ابن زيد (1) وغيره.

ولا يقال على هذا بأن قوله "عندي" يردُّه؛ لان المعنى عند ارباب هذا القول: أن هذا في رأيي ومعتقدي، فليس "عندي" ظرفا للعلم، وانما هو ظرف لمضمون الجملة، وهذا نظير الاية الاخرى وهي قوله سبحانه: {فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولنه نعمة منا قال انما اوتيته على علم} سورة الزمر اية 49 (2)

وقد حُكِي في قول قارون: أن العلم هو علم الكيمياء. حكاه المهدويُّ وابن عطية وغيرهما (3).

(1) اخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم
(2) مال المصف إلى هذا القول، و قد قدمه في (شفاء العليل) وجعل الاية الاخرى نظيرة لهذه الاية كما فعل هنا، قال: (وقد يترجح هذا القول بقوله:"اوتيته" ولم يقل: حَصَّلتُه واكتسبتُه بعلمي ومعرتفي، فدل على اعترافه بأن غيره آتاه اياه). و هو اختيار ابن جرير، وحكى أبو اليث السمرقندي في (بحر العلوم) عن الزجاج أنه الأشبه، وقال أبو جعفر النحاس في (معاني القرآن): (وهذا أولاها، يدلُّ عليه ما بعده)، ورجحه ابن كثير في (التفسير)، و (البداية والنهاية).
(3) الكشف والبيان) و (المحرر الوجيز) ولم اجده في كتاب (التحصيل) للمهدوي، ولعل المصنف اراد ان يكتب (الثعلبي) كما سيذكره الشيخ الاسلام فسبق ذهنه الى المهدوي وروى ابن أبي حاتم في (التفسير) عن الوليد بن زَوْران، وهو تابعيٌّ غير مشهور، في قوله تعالى عن قارون: (وآتياه من الكنوز) قال: (كان قارون يعمل الكيمياء). و حكاه الطوفي في (الإكسير) وأبهم قائله، ولم يردَّه بشئ، وللطوفي ميلٌ إلى تصحيح الكيمياء، و سيأتي كلامه في الإحتجاج لها، قال: (وقيل: أراد على علم عندي بعمل الكيمياء. فإن صحَّ هذا فإن الكيمياء موجود). وبنى عليه الفيروزابادي، فقال في (بصائر ذوي التمييز) عن قارون: (وسبب جمعه للمال العظيم اطلاعه على صناعة الكيمياء)).

وهذا لا يُعْلَم صحته عمَّن نُسِب اليه وهو سعيد بن المسيب [1]، وإن كان صحيحًا عنه فلا دليل فيه على ان تلك الصِّناعة كانت حقًّا في نفس الامر، وانها تضمنت قلب الفضة والنحاس ذهبا، بل يكون تصفيره وصبغه جعل منها ذهبا مصنوعا مصبوغا واتخذه كنوزا فأي دليل في هذا يدل على صحتها؟!

[1] تقدم الخبر الإسرائيلي المكذوب المرويُّ عن ابن عباس، وقول أبي حيان في (البحر المحيط): (ولعل ذلك لا يصحُّ عنه ولا عن ابن المسيب). وقال أبو جعفر النحاس في (معاني القرآن): (فأما ما روي أنه كان يعمل الكيمياء فلا يصح) يعني عن قائله أو في نفس الأمر، و الثاني أشبه، وقد أخذه من قول الزجاج في (معاني القرآن): (والذي رُوِيَ أنه كان يعمل الكيمياء، وهذا لايصح؛ لأن الكيمياء باطلٌ لا حقيقة له). انظر (إعراب القرآن) للنحاس.

وضعَّف هذا القول جماعةٌ من أهل العلم، وجعلخه تاج القرآء الكرماني من التفسير (العجيب) في كتابه (غرائب التفسير)، وقال: (وهذا لا يرتضيه المحققون؛ لأن الكيمياء اسمٌ لا مسمى له، كالعنقاء).

وقبله جعله أبو طاهر الطريثيثي (وهو م معتزلة الزيدية المتقدمين في القرن الرابع) من (الشذوذ) في كتابه (متشابه القرآن)، وقال في (الباب السادس عشر فيما تعلقوا به من معرفة قارون الكيمياء): (الذي تعلقوا به من ذلك قوله تعالى (قال إنما أوتيته على علم عندي) قالوا: عنى به الكيمياء. الجواب: أن التعلق بذلك فاسد؛ وذلك لأنه لم يقل: بعلم عندي وليس في اللغة أن يقال: (أُعْطِيتُ كذا على عِلْم) أن يكون العلم سببصا للعطية. على أن العلم يجوز ردُّه إلى أشياء كثيرة، فمن أين أن المراد به الكيمياء وليس في الآية ذكرٌ لذلك ولا دلالة عليه؟ وسنقِّر العلم على وجه

معلوم دون الكيمياء. على إثبات الكيمياء غير صحيح، وقد دلَّ المتكلمون على فساد ذلك بما فيه غنيةٌ وكفاية، ولولا أن الكتاب ليس من شرط أمثال ذلك لأوردتُ منه ما يكون كافيًا، وفيما ذكره شيخنا أبو زيد البلخي في كتابه (تقاسيم العلوم) غنيةٌ وكفاية، ثم قال: فأما معنى الآية فيتحمل وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أخبر بمثل ذلك عن كل من يؤتيه الله مالًا أنه يقول مثل ما قال قارون، ألا ترى إلى قوله تعالى: (قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة)، فقد أخبر أن الكلَّ يقولولن مقل ما قال قارون، بمعنى أن المعطي إيانا ذلك أعطانا على علم باستحقاقنا ذلك، ولو لم نكن له أهلا ما أعطانا الله. فردَّ الله ذلك بقوله: (بل هي فتنة)، فأخبر أن الذي أعطاه الله تعالى امتحانٌ له وليس عن استحقاق. ولا تعلُّق في ذلك بقوله: (عندي)؛ لأنه يريد: (أن هذا كما قُلته فيما أراه أو توهَّمه)، ثم ذكر وجهًا آخر لا برهان له به، وقد سقتُ كلامه بطوله لأهمية وخفاء موضعه وتقدم قائله.

وقال ابن كثير في (البداية والنهاية): (وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ... فليس بصحيح؛ لأن الكيمياء تخييلٌ وصبغةٌ لا تحيلُ الحقائق ولا تشابه صنعة الخالق)، وقال في (التفسير): (وهذا قول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علمٌ باطل؛

لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل ...).

وجزم ببطلان تفسير ذلك العلم بالكيمياء ابن الملقن في (التوضيح).

وأقدمُ من علِمتُه تكلم في علم الكيمياء في الاسلام ونُسِبَ اليه هو خالد بن يزيد (1)، فإنه نُسِب الى ذلك وذكره صاعد في (تاريخه) وقال: (إنه اخذ الصناعة عن رجل من الرُّهبان يقال له مَرْيانُس الرُّومي) (2).

الدليل الرابع عشر: أن الكيمياء لو كانت صناعة حقيقيَّة صحيحة الاصول وهي جائزة في الشرع لكان علمُها وعملُها من أنفع الامور للأمَّة، ولا سيما في اوقات الحاجات الى جهاد الاعداء والنفقات على جيوش الاسلام وإعزاز الدين (3)، فتكون الكيمياء حقا جائزًا ثم لا يعلمها احد من الانبياء ولا الخلفاء الراشدين مع حاجتهم الى المال وضرورتهم الى الانفاق؟! هذا مما يَعْلَم بطلانَه من له عقلٌ سليم؛ فان الخلفاء أنصح للامة من ان يعلموا طريقا صحيحا جائزا يتوصلوا به الى إقامة الدين وجَبْر المساكين وإغناء الفقراء وتوسعة الاسلام ثم

(1) بن معاوية بن ابي سفيان الأموي، توفي سنة90، وتقدم الكلام عنه في الدراسة.

(2) في (طبقات الامم) لصاعد (48): (كان بصيرًا بالطب والكيمياء، وله في الكيمياء رسائل واشعار بارعة دالة على معرفته وبراعته فيها).

(3) كما قال المأمون: (لو صحَّت الكيمياء ما احتجنا الى الخراج). ذكره ابن عقيل في (الفنون). انظر: (الآداب الشرعية) لابن مفلح. ونُقِلت العبارة في (فوات الوفيات) عن ابن برهان النحوي من قوله وإنما تمثَّل بها. واظرحكاية لطيفة في هذا المعنى للملك السعيد صاحب ماردين مع أحد الزهاد في (لطائف الأعلام فيإشارات أهل الإلهام) للكاشاني.

يهملونه ولا يَنْبِزون [1] فيه بحرف واحد وتتوفر هممهم ودواعيهم على كتمانه جملة، ولكن القوم كانوا اشرف نفوسا واعظم أقدارًا من ان يرضوا لانفسهم وللامة بالزَّغَل والمُحَال [2].

الدليل الخامس عشر: أن غاية ما يصل اليه الكيمياويُّ تغيير صفات الجوهر الذي يزعم انه يقلبه ذهبا، فإنه يبالغ في صَبغه وتصفيره وتلوينه وإشراقه ورزانته وثِقَله، وليس بيده ولا عند الناظر غير ذلك، فأما حقيقتُه الذهبية التي تميَّزت بها عن غيرها وكانت بها ذهبًا فمن أين له تكوينها؟! والصفات المذكورة لا تدل على انقلاب الحقيقة، فالقول بانقلابها كذب على الطبيعة والصناعة.

الدليل السادس عشر: أنه من المستحيل ان يتشابه خلقُ الله بصُنع العباد ابدا، بل خلقُ الله لا يشبه صُنعَ العباد، ولا صُنعُهم يشبه خلقَه سبحانه، قال تعالى: {ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشبه الخلق عليهم قل الله خلق كل شيء وهو الواحد القهار} سورة الرعد اية 16.

واذا كان الله سبحانه هو خالق جوهر الذهب فمحال ان يصنع العباد مثله، وانما يضاهون ويُحاكُون خلقَه، كما يصوِّرون صور الحيوان من الاحجار والخشب والمعادن وغيرها، وكما يصورون صور الاشجار والنبات والنجوم وغيرها، فهذا تصوير وتمثيل للمخلوق بالمصوَّر لا إحداث ذاتٍ نظيرَ الذات التي خلقها الله عز وجل؛ فان المخلوق اضعف قدرة من ذلك [3]

(1) ينطقون، وتقدم الكلام على هذه اللفظة ودلالتها.

(2) انظر: (المجادلة بين الحكيمية) للموفق البغدادي 59.

(3) قال شيخ الاسلام ابن تيمية: (ولهذا يفرِّق في هذا التصوير بين الحيوان وغير الحيوان،، فيجوز تصوير صورة الشجر والمعادن في الثياب والحيطان ونحو ذلك؛

لان النبي "ص" قال: (من صوَّر صورةً كُلِّف ان ينفخ فيها الروح وليس بنافخ)، ولهذا قال ابن عباس للمستفتي الذي استفتاه: (صوِّر الشجر وما لا روح فيه). وفي السنن عن النبي "ص" ان جريل قال له في الصورة: (مُرْ بالرأس فليُقْطَع)، ولهذا نص الائمة على ذلك وقالوا: (الصورة هي الرأس لا يبقى فيها روح فيبقى مثل الجمادات). وهذا التصوير ليس فيه غشٌّ ولا تلبيس؛ فإن كل أحدٍ يفرِّق بين المصوَّر وبين المخلوق، وأما الكيمياء فإنه يشبَّه فيها المصنوع بالمخلوق). (مجموع الفتاوى).

فغاية الناس تشبيه المصنوع بالمخلوق من بعض الوجوه، مع التباين في الحقائق، ولهذا مُنْصِفوهم اذا قَتَلوا الصَّنعة خُبْرَا ورجعوا الى عقولهم يقولون: (نحن صباَّغون [1]، وانما نعمل تَصْفِيرة)، ويقول حُذَّاقهم: (إن اكثر ما تَثْبُت تلك الصبغة اذا كانت نهايةً [2] ستين سنة، ثم ترجع الى حقيقتها ومادَّتها) ذكر ذلك غيرُ واحدٍ منهم (وسيأتي شاهد ذلك في خبر ابي بكر الرازي في الدليل الثالث والعشرين حين باع ذهبا مصنوعا للنصارى فلما وصلوا به الى بلادهم اقام عندهم مدة فاستحال فردُّوه عليه).

(1) ينقل الكيمياويون هذا عن مارية القبطية كما في (المجادلة بين الحكيمين) للبغدادي. ومارية م الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة كما يذكر النديم في (الفهرست)، وسمًى في الكتب التي ألفها الحكماء كتاب (مارية القبطية مع الحكماء حين اجتمعوا إليها)، ولها شأن كبير عندهم، ولاصلة لها بسُرِّية النبي صلي الله عليه وسلم وأم ولده إبراهيم رضي الله عنهما، كما توهم بعضهم، وإنما وافق اسمها. وفي تعيينها اختلاف. يقول سنركين في (تاريخ التراث العربي): (وربما كان من الممكن من واقع المحتوى والاقتباسات التخمين أن رسائل مارية تعود إلى القرن الثاني أو الثالث الميلاديين). وانظر: (نهاية الأرب)، و (الخيمياء العربية) لجورج قنواي (1101 - تاريخ العلوم العربية).
وفي (نخبة الدهر في عجائب البر ة البحر) لشيخ الربوة محمد بن أبي طالب الأنصاري: (قال المحققون: أيها الحكيم الكيمياوي، إنك قلت عن صناعتك: نحن صبَّاغون لا خلَّاقون، أي أنك لاتقدر على نقل سائر الأعراض الأربعة عشر الذهبية فتجعلها بدلاً من أوصاف الفضة أو أوصاف معدنٍ ما غيره عن آخرها فيكون ذلك ذهبًاا من كل وجه).
ومن النصوص الثمينة في هذا السياق قول الشيخ الصنعة جابر بن حيان في بعض رسائله (141 - مختار رسائل جابر): (وكذلك الكيمياء إنما هي إعطاء الأجسام أصباغًا لم تكن لها)).
(2) كذا في الاصل. ولعل المراد: اذا بلغت منتهى الجودة وغاية الاتقان.

الدليل السابع عشر: ان النبي "ص" ثبت عنه في الصحيح [1] انه قال: (يقول الله: ومن اظلم ممن ذهب يخلق بخلق كخلقي، فليخلقوا ذَرَّة، فليخلقوا بعوضة) وفي لفظ: (فليخلقوا شعيرة) فأخبر سبحانه عن ظلم هذا الباغي ان يخلق مثل خلق الله، ثم عجَّزه سبحانه عن ذلك بخلق اضعف اجناس المخلوقات، فذكر الذَّرَّة التي هي في غاية الصغر والحقارة والبعوضة التي هي في غاية الضعف والعجز والحبَّة من الشعير [2] التي هي من اكثر الحبوب واعمَّها وجودًا، فكيف يستجيز عاقل ان يظن انهم يخلقوا ذهبا خالصا مضاهيا للذهب الذي خلقه الله عز وجل؟!

[1] صحيح البخاري (7559) ومسلم (2111) من حديث ابي هريرة رضي الله عنه.
[2] الاصل: (الشعيرة)، ولعله سبق قلم.

الدليل الثامن عشر: وهو ما استدل به ابن سينا على ابطالها قال: (هذه الامور المحسوسة

من الصُّفرة والرزانة وغيرها يشبه ان لا تكون هي الفصول التي بها تصير هذه الاجساد انواعًا بل هي اعراض ولوازم، والفصل المنوع (1) للماهيِّة لا يمكن ان يُسْلَب عنها وتُكْسَى فصل ماهية غيرها؛ اذ فصول الماهيَّة لا تُخْلَع وتُكْسَى وانما تكسى وتخلع بعض أوصافها ولوازمها وعوارضها) (2).

الدليل التاسع عشر: ان الذهب المَعْدَنِيَّ انما يتكوَّن في المدة الطويلة على التدريج، كما يتكون الجنين في البطن والنبات في الارض، ولهذا اجرى الله سبحانه عادته وهو مقتضى حكمته فلا يتم ولا يَكْمَل الا في تلك المدة المضروبة له، واذا أُخِذَ قبلها كان مبدءًا (3) ناقصا غير تامٍّ، وتمامه موقوف على مدته المضروبة له قدرا وحكمة.

(1) الاصل: (الفصل والمنوع)، وهو خطأ

(2) كذا وقع النصل في الاصل، ولا ادري أمن كتاب ا (لشفاء) هو ام من رسالة ابن سينا المفردة في الكيمياء. ونص (الشفاء) قسم الطبيعيات -المعادن والاثار العلوية (23): (وأما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسى فلم يتبين لي إمكانه، بل بعيدٌ عندي جوازه؛ إذ لا سبيل إلاحلِّ المزاج إلى مزاج آخر؛ فإن الأمور المحسوسة يُشبه أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجساد أنواعًا، بل هي عوارض ولوازم، وفصولها مجهولة، وإذا كان الشئ مجهولًا كيف يمكن أن يُقْصَد قصدُ إيجاده أوإفقاده ...)، وسبق أن نقل المصف بعضه بواسطة (المباحث المشرقية) فيما أرجح.

(3) كذا في الاصل.

والكيمياويون يزعمون انهم يكونونه في ساعة واحدة ذهبا خالصا مثل المعدني وربما يقولون انه خير منه! (1)

(1) ولو كانت الكيمياء حقا لما كان الذهب يحتاج الى مدد طويلة لتكوينه في الارض ثم الى مشقة عظيمة في استخراجه منها؛ فإن الطبيعة كما يقول ابن خلدون في (المقدمة) (لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص الأبعد، فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح، وأنه أقرب م الطبيعة في معادنها و أقل زمانًا، لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الذهب والفضة وتخليقهما)، وسبقه إلى الإشارة الى هذا المعنى أبو حيان في (الإمتاع والمؤانسة) بقوله: (وقيل: إن الطبيعة لا تسلك إلى إبراز ما في المادة أبعد الطرق، ولا تترك أقرب الطرق).

الكيمياء القديمة

حقيقتها ومواقف العلماء منها

فليس العجب من عقول غَشِيَتها دخاخين الباطل حتى ظنَّت الزغل والغش خالصا صحيحا، فتلك عقول سِفْلِيَّة قاصرة النظر تشبه عقول من يرى كل أصفر منقوش دينارا، وانما العجب من عقولِ أقوام يدَّعون العلم والمعرفة ثم يجوِّزون ان يكوِّن البشر من الذهب في الساعة الواحدة ما جرت عادة الله في العالم بتكوينه بالتدريج في الازمنة المتطاولة، فصنعُ

البشر عند هؤلاء المخذولين اعظم وأعجب من صنع الله تعالى، الله عما يقولون علوًا كبيرا.

بل الذي يصنعونه في الساعة واحدة انما هو التَّصفير والصَّبغ وتشبيه المصنوع بالمخلوق ليس إلا، وقد رأيتُ بعض الكيمياويين يفضِّل في كتابه الذهب المصنوع على المخلوق بذلك قال: (ذهبُ الحكماء يتكون في ساعة واحدة والذهب المعدني انما يتكون في المُدَد المتطاولة).

فالحمدالله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا.

الدليل العشرون: أن يقال: ليس بأيدي الكيمياويين الا القَدْرُ المشترك بين الذهب المخلوق وذهبهم المصنوع في بعض الصفات، كاللون والاشراق والرزانة ونحوها، ومن المعلوم ان الماهيات المختلفة يجوز اشتراكها في لوازم وصفات كثيرة ولا يدل ذلك على اتحادها بالنوع اذ ما من موجودَين الا وبينهما قَدْرٌ مشترك يقل تارة ويكثر اخرى (1)

(1) انظر: (مجموع الفتاوى) و (الصواعق المرسلة)

ولا يدل كثرة القدر المشترك بينهما على اتحادها بالحقيقة فغاية ما يمكن ان يقال: انهما قد اشتركا في اللون والرزانة والاشراق فهل يدل هذا على انهما واحد بالحقيقة؟!

الدليل الحادي والعشرون: ان الذي دلَّت عليه البراهين الصحيحة ان الاجسام ليست متماثلة، بل مختلفة في الحقيقة (1) والتماثل انما هو بين اشخاص النوع الواحد ومن المعلوم ان المتماثلات لا تنقلب مختلفات، فكذلك المختلفات لا تنقلب متماثلات بالصَّنعة ابدًا.

الدليل الثاني والعشرون: ان الذهب لم يكن ذهبًا للونه فقط، ولا لثِقَله ولا لاشراقه ولا لبهائه ولا لمجموع هذه الامور وانما كان ذهبا لحقيقته، وخاصته التي صار بها ذهبا، وهي التي تسمَّى صورته النوعية (2) وتلك الصورة النوعيَّة غير مقدورةٍ للبشر، وانما المقدور لهم احداث بعض الاعراض والصفات، فالذي كان به الذهب ذهبا غير مقدور لهم والمقدور لهم ليس هو الذي صار به الذهب ذهبا، وهذا بيِّنٌ لا خفاء به.

الدليل الثالث والعشرون: انه من المعلوم ان الذهب المعدني حافظ للصورة الذهبية لا تفارقه على تطاول الدهور ومرور الازمان؛ لكمال جوهره وبُعْدِه من الاستحالة والفساد، وهم لا يمكنهم دعوى ذلك في الذهب المصنوع اصلا الا بالبهتان والمكابرة؛ فإن الصباغ منهم

(1) وهو من فروع مسألة التحسين والتقبيح العقليين. انظر: (شفاء العليل) و (أعلام الموقعين) و (الصواعق المرسلة) و (زاد المعاد).
(2) الصورة النوعية: هي الجوهر الذي تختلف به الاجسام انواعا، أو هي الجوهر الذي هو مبدأ الآثار الخارجية المختصة. (انظر: (دستور العلماء) و (التوقيف على مهمات التعاريف).

لا علم له بأن تصفيرته تبقى على ممرِّ الازمان لا تتحول ولا تتبدل، وليس معه علم بأن ذهبًا معيَّنًا مصنوعًا مرت عليه ازمنة متطاولة وهو باق على حاله، بل لعله يراه قد مكث الشهر والشهرين او العام والعامين على حاله فظن أن حكم الاعوام كلها وإن طالت كذلك وانه لا يتغير ابدا، وهذا غاية الجهل اذ لا يلزم مِن بقاء الجوهر في زمان وعدم استحالته فيه بقاؤه

في جميع الازمنة وعدم استحالته فيها مع الطُّول، وهذا الذهب المصنوع في الاستحالة على مراتب فمنه ما يستحيل بعد بضع سنين، ومنه ما يزيد بقاؤه على ذلك ولو بعد حين (1)).

ومن اعظم الكيمياويين المنتصرين لها المبالغين في إثباتها هو محمد بن زكريا الرازي، وله فيها تواليف (2)، عَمِلها وباع ذلك الذهب المصنوع للنصارى، فلما وصلوا به إلى بلادهم أقام

(1) انظر (مجموع الفتاوى) (29/ 373) ومضى في الدراسة تعليق أيدمر الجلدكي في كتابه (الدر المنثور) في شرح ديوان الشذور على كلام شيخ الاسلام في استحالة صبغة الذهب المصنوع.

(2) قال ابن جلجل في (طبقات الاطباء): (وحقَّق صناعة الكيمياء، والف فيها أربع عشرة مقالة)، وزادها البيروني في فهرست كتبه إلى ثلاث وعشرين. قال المسعودي في (مروج الذهب): (ولأبي بكر بن زكريا في هذا المعنى كتب قد صنفها، وأفرد كل واحد منها بنوع م الكلامفي هذه الصَّنعة في الأحجار المعدنية والشعر وغير ذلك من كيفية الأعمال). وانظر لتفصيل القول فيها: (تاريخ التراث العربي) (المجلد الرابع، السيمياء والكيمياء).

عندهم مدة فاستحال فردُّوه عليه [1].

ولا يُعْلَم في اطباء الاسلام اشد انتصارا ولا اعلم بالكيمياء منه، وصنَّف كتابا انتصر فيه لها [2]، ونَقَض على يعقوب بن اسحاق الكندي كتابه في ابطالها وبيان فسادها وبيان حيل الكيمياويين [3]، فأتى فيه بكل قبح وكذب وباطل، ونسب فيه الانبياء إليها وجعل اهلها خلاصة

(1) قال ابن أبي أصيبعة في (عيون الانباء): (حدثني بعض الاطباء ان الرازي كان قد باع لقوم من الروم سبائك ذهب، وساروا بها إلى بلادهم ثم إنهم بعد ذلك بسنين عدّة وجدوها وقد تغير لونها بعض التغير وتبين لهم زيفها فجاءوا بها اليه وأُلزِم بردها).

(2) هو (كتاب في ان صناعة الكيمياء إلى الوجوب اقرب منها إلى الامتناع) وسماه الرازي (كتاب اثبات الصنعة والرد على من انكرها) ويختصر إلى (كتاب الإثبات). انظر: (الفهرست) و (مروج الذهب) و (أخبار الحكماء) و (الدر الثمين) لان الساعي و (عيون الأنباء) و (السير) و (تاريخ التراث العربي) (المجلد الرابع- السيمياء والكيمياء).

(3) وهو كتاب (الرد على الكندي في إدخاله صناعة الكيمياء في الممتنع) وسماه النديم في (الفهرست): (كتاب الرد على الكندي في رده على الصناعة). قال الصفدي في (الغيث الذي انسجم): (وردً عليه أبو بكر محمد بن زكريا ردًّا غير طائل).

الناس واشرفهم واكملهم [1]، وفضَّلهم على الزُّهاد، وطعَن فيهم وعابهم، وقال: (هم كالهِرِّ اذا لم يَصِل إلى اللحم قال: هو مُنْتِن) [2]!

وذكَر اقسام الناس في اكتساب الاموال، وجعل اشرف الاقسام اكتسابَها بالكيمياء وفضَّل

ذهبهم المصنوع على الذهب الذي خلقه الله في معادنه، فألقى جلباب الحياء عن وجهه وارتدى بلباس الكذب والمُحَال والبهتان، وفارق بذلك اهل العقل والعلم والايمان، وإن ساعد القدر واعان التوفيق ان شاء الله أملينا كتابًا ننقضُ عليه كتابَه، ونبيِّن فيه فساد الصناعة الكيميائية بطريق الطبيعة والحقيقة والشريعة والحكمة الإلهية، وحيل اهلها، وإفسادهم العالم والاثمانَ التي جعلها الله قِوَام الناس، ولكنَّ هذه العُجَالة بحسب ما اقتضاه الحال من عجلة السَّائل وكونه قد هيَّأ مركب السفر، فعلق له ما سَمَح به الخاطر، والله وليُّ الإعانة.

الدليل الرابع والعشرون: انه لو كان الذهب المصنوع كالمخلوق او افضلَ منه كما يقوله المفترون على الطبيعة والحقيقة لم يكن عند الناس بينهما فرق، ولجرى ذلك عندهم مجرًى

(1) وكان يزعم (أنه لا يجوز أن يصحَّ علم الفلسفة ولا يسمَّى الانسان العالم ُ فيلسوفًا إلا أن يصح له علم صناعة الكيمياء، فيستغني بذلك عن جميع الناس، ويكون جميعهم محتاجًا إليه في علمه وحاله) ويقول: (أنا لا أسمِّي فيلسوفاً إلا من كان قد علم صنعة الكيمياء، لانه قد استغنى عن التكسُّب من أوساخ الناس وتنزَّه عمَّا في أيديهم ولم يحتج إليهم). انظر (الفهرست) و (عيون الأنباء).

(2) من امثال المولدين، كقولهم: (من لم يصل إلى العنب قال هو حامض).

واحدًا، وقد فطر الله خلقه على أن هذا لا يكون مثل هذا ابدًا، ولهذا لو بيع ذهبٌ ونودي عليه: (هذا ذهبٌ مصنوعٌ كيمياويٌ لا مَعْدِني)، لمَا رغب فيه الناس إلا كرغتبهم في سائر الاشياء المغشوشة المُزغلة هذا فِطَرُ جميع الناس في سائر الاقطار والامصار والاعصار [1]، بل اذا اطَّلعوا على الكيمياوي بادروا إلى عقوبته والتنكيل به واخراجه ونفيه من بينهم، لأنه يفسد عليهم نقودَهم وأثمانهم وحُلِيَّهم فلا يمكنهم أن يُقِرُّوه على ذلك.

فلو كانت الكيمياء صناعة صحيحة لكانت كصناعة الزُّجاج والفخار وغيرهما من الصَّنائع الصَّحيحة التي لا يُنْكَر على صانعها ولا يُنْسَب إلى زَغَل، وإنما قصد الكيمياويِّين تشبيهُ المصنوع، بالمخلوق وبثُّه في الناس وإنفاقُه ومعاملتُهم به كما يفعلُ صاحبُ الغِشِّ والزَّغَل، لكنها زَغَلٌ مليحٌ لا ينكشف لكلِّ أحد.

ولا ريب أنه لا يجوز لمسلم ان يعامِل الناسَ بهذا الذهب حتى يبيِّن أنه ذهب مصنوع، وحينئذٍ يَعْلَم هل يعاملُه به احد ام لا؟!

فلو كانت الكيمياء صحيحةً فهلَّا يقول الكيمياويُّون للناس إذا أخرَجوا ذهبَهم: (أن هذا ذهبٌ مصنوعٌ من الكيمياء) إن كانوا صادقين؟!

الدليل الخامس والعشرون: أنك لا تجد الكيمياويين قطُّ إلا أهلَ ذِلَّةٍ وإفلاسٍ واختفاءٍ من الناس وخيفةٍ من خيالهم، يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم كما قال القائل:

[1] انظر: (مجموع الفتاوى).

يُرَوِّعُه السِّرارُ بكلِّ فجٍّ ... مَخالفة ان يكون به السِّرارُ (1)

يعني إذا تَوَشْوَش أحدٌ يقول في نفسه: شُو؟ شُو؟ (2).

قد لَبِسَتهم الذِّلَّة والقِلَّة، وما ذاك إلا لافترائهم وزَغَلهم (3)، قال تعالى: {ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحيوة الدنيا وكذلك نجزي المفترين} سورة الاعراف اية 152. قال ابو قلابة: (هي لكل مُفْتِرٍ من هذه الأمَّة الى يوم القيامة) (4) وليس في حكمة الله ورحمته ان يُذِّلَ المُحِقَّ الناصح المُحْسِنَ إلى خلق الله، المُوَسِّع أرزاقَهم

(1) من كلمة طويلة مستجادة لبشار في ديوانه و السِّرار مصدرُ سارَّ إذا تكلَّم سرًّا مع غيره والمعنى كما يقول الطاهر بن عاشور: (أنه من شدة حذره يحسب كل َمتسارَّين يتسارَّان في شأنه).

(2) توشوش: الوشوشة هي الكلام الخفي، من فصيح العامة، وفي الحديث (فلما انفتل توشوش القومُ بينهم). انظر: (صحيح مسلم) و (النهاية) (وشوش). وقوله: (شُو شُو) اسفهام، من كلام العامة الذي لم يزل، أي أنه إذا رأى يوشوش غيره يسأل نفسه لذدة خوفه ومحاذرته: ماذا قال؟ وهل هو المقصود به؟ والعبارة الشارحة ملحقة في الطرة، ولعلها مما زاده المصنف حين قرئت الرسالة عليه.

(3) انظر: (مجموع الفتاوى) و (درء التعارض). وكذلك أهل التنجيم، كما في (مفتاح دار السعادة) للمصنف.

(4) أخرجه ابن جرير. وأخرجه اللالكائي في (السنة) (289) عن أيوب. وأخرجه ابن ابي حاتم في (التفسير) وأبو نعيم في (الحلية) عن سفيان بن عيينة. ويروى عن غيرهم.

والمُفَرِّج عنهم كرباتهم، والمُغْني فقيرَهم ومسكينهم (1)،فلا يعيشُ بينهم إلا ذليلًا خائفًا متواريًا مصحوبًا بالقِلَّة والذِّلَّة، شحَّاذًا من الناس أموالَهم، او متحيِّلًا على أكلِها بالباطل

والطَّمَع من الباذل (2). قال ابو يوسف: (من طلب العلمَ بالكلام تزندَق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلَس، ومن تتبَّع غرائبَ الحديث كَذَب) هذا صحيحٌ محفوظٌ عن أبي يوسف (3)، وروي نحوه عن مالك والشافعي (اخرجه الخطيب في الجامع لاخلاق الراوي واداب السامع عن ابي حنيفة وابو اسماعيل الانصاري في ذم الكلام عن مالك ورواه اسحاق بن ابراهيم الطبري عن ابي يوسف عن مجالد عن الشعبي) وهو صحيح بلا ريب.

(1) فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه، فمن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه. انظر: (الوابل الصيب).

(2) وفي ملازمة الفقر لأهل الكيمياء قول أبي يوسف القاضي المشهور: (من طلب المال بالكيمياء افتقر) وتقدم تخريجه وألفاظه في الدراسة. ويحكى عن الشافعي أنه سئل عن الكيمياء، فقال: (أعرفُ من افتقر به، فأما من استغنى به فلا أعرفه)، ذكرها السيوطي في (المحاضرات والمحاورات) ولم أجدها في موضع آخر.
وعن هوان أهلها وذلِّهم وفقرهم ابن حجر الهيتمي في (الزواجر) فيمن يضربون الدراهم والدنانير على كيفية من الغش: (ولذلك تجدهمقد محقهم الله البركة، وسحقهم، فلا يستتر لهم عوار، ولا تُحْمَد لهم آثار، ولا يقرُّ لهم في محلٍّ قرار، بل ضُرِبت عليهم الذِّلَّة والمسكنة، وباؤوا بأقبح وصف، وحُرِموا الجنة؛ لأنهم أخلصوا القصد في محبة الدنيا وتحصيلها فيما ليس بطائل، فوفقهم الله لاتباع الحق وسلوك سبيله ومجانبة الباطل وقبيله، سيَّما أهل هذه الصناعة الرذيلة التي أوسعوا في طرق تحصيلها الحيلة، ومع ذلك لا يزدادون إلا فقرًا ولا يذوقون فيها إلا ذلًّا وقهرًا)، وهذه صفة عامة أهل الكيمياء، وإن كان الهيتميُّ ممن يصحِّحها
ويحسن الظَّن بها ويذهب إلى إمكانها، كما في (تحفة المحتاج)، ويرى أن (غالب المنهمكين على ضرب الكيمياء لا يحسنونها، وإنما يصبغون، أو يلبسون، أو نحو ذلك منالغش المستلزم لتغرير الناس وأكل أموالهم بالباطل). وكذا قال زرُّوق في (عدة المريد الصادق): (ولقد رأينا هذه الصناعة ومنيطلبها مقرونةً بالذلِّ والفقر).

(3) أخرجه اللالكائي في (السنة)، والخطيب في (الكفاية)، وأبو إسماعيل الأنصاري الهروي في (ذم الكلام)، وغيرهم. قال الذهبي في (العلو): (ثبت عن أبي يوسف)، وهو (من كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب) كما يقول ابن كثير في (البداية والنهاية). وتقدم تخريجه بطرقه وألفاظه مستوفًى ي الدراسة.

وجرت بين شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه وبين بعض الكيمياويِّين (1) مناظرةٌ أفحمت ذلك الكيمياويَّ وأخرسَتْه، فأقرَّ بانقطاعه، وقال: أعفِني من المناظرة.

(1) هو علي بن الحسن بن عبدالله ابن الجابي، خطيب جامع جرَّاح، المتوفى سنة 701، كان مغرًي بالكيمياء، وحصَّل فيها كتبًا كثيرة جدًّا، ويزعم أنها صحَّت معه، (والظاهر أنه ظفر منها ببعض صِبْغٍ أطعَمه) كما يقول الصفدي، وقال اليونيني في (ذيل مرآة الزمان): (وله هوسٌ بعلم الكيمياء، وكان يعرفه معرفة تامة، ولم يُرْزَق منه بشئ.

قال الذهبي في (تاريخ الإسلام) في حوادث سنة 691 في التاسع عشر من شوال: (ويومئذ أُمْسِك علاء الدين ابن الجابي خطيب جامع جرَّاح، وأُخِذ مالُه، واتُّهِمَ بضرب الزَغَل، وكان مغرًى بالكيمياء، فضُرِبَ وحُبِس مدة). وأصله في (المقتفي) للبرازي.

وقال ابن الجرزي كما في (الدرر الكامنة) وليس في القسم المنشور من تاريخه: (كان صاحبي، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامة، ولما مات توجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية فاسترى منها] أي من كتبه [جملة، وغسَلها في الحال، وقال: (هذه الكتب كان الناس يُضِلُّون بها وتضيعُ أموالهم، فافتديتُهم بما بذلتُه في ثمنها)، وكذا قال الصفدي في (أعيان العصر): (ولمَّا بيعت كتبه جاء الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى واشترى منه كتبًا بألف درهم، جميعها في الكيمياء، ورمى بها في وقته في بِرْكة، وغسَلها، وقال: (هذه كانت تُضِلُّ الناس وتُضِيع أموالهم)، وسيأتي ذكر هذه الحادثة والإشارة إليها في وقت آخر نقل المصنف عن شيخ الإسلام، وعبارته كما في (مجموع الفتاوى): (ثم إنه مات هذا الرجل و كان خطيبًا بجامع، فلم يشهد جنازته من جيرانه ...)، ولم يسمِّه.

وقال له في أثناء كلامه: إن النبي "ص" كان يعرف هذه الصِّناعة!

فقال له شيخ الإسلام: هذا كذب، بل هو مستلزم ٌللكفر؛ فإن الله تعالى يقول في كتابه: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا} إلى

قوله {ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم (91) ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألَّا يجدوا ما ينفقون} سورة التوبةآية 91 إلى 92. وهذه الآية نزلت في غزوة تبوك، وكان النبي "ص" قد حضَّ فيها الناسَ على الصَّدقة، وسُمِّي جيشُها (جيش العسرة) لشدَّة حاجتهم إلى الإنفاق، حتى طلبوا منه أن يحملهم على النِّعال (1) ولم يكن عنده ما يُنْفِق عليهم، وكان شديد الحضِّ على الإفاق، فلو كانت الكيمياء حقًّا مباحًا وهو يعرفها لكان من الواجب أن يعمل منها ما يجهِّز به الجيش؛ فإن ذلك مصلحةٌ راجحة ٌعريَّةٌ عن المفسدة المقاوِمة، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب، ومن نسَب النبي "ص" إلى ذلك فقد نسَبه إلى ما نزَّهه الله عنه (2).

(1) روي عن غير واحد من السلف. انظر: (التفسير) لابن أبي حاتم. قال شيخ الإسلام: (وسواءٌ أريد بالنِّعال النَّعال التي تُلْبَس او الدواب التي تُرْكَب فقد أخبر الله عن نبيه انه قال لهم: {لا اجد ما احملكم عليه}). (مجموع الفتاوى

(2) زعم إسماعيل حقي في (روح البيان) أن النبي "ص" أشار إلى علم الكيمياء في قوله لثعلبة بن حاطب رضي الله عنه: (والذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهبًا وفضة لسارت)، وعلى أنها دعوى مجردة فهو حديثٌ منكر لا يثبت.

يوجبون في المال الحلال[1].

فقال له الكيمياوي: فان موسى كان يعمل الكيمياء

فقال له شيخ الإسلام: هذا كذب، لم يَنْقُل هذا عن موسى أحدٌ من علماء المسلمين ولا علماء أهل الكتاب[2]، بل قد ذُكِر عنهم أن موسى كان له عليهم حقٌّ يأكل منه، ولو كان يعُمل الكيمياء كان يأكلُ منها.

قال الكيمياوي: فإنَّ قارون كان يعمل الكيمياء.

فقال شيخ الإسلام: وهذا أيضًا باطل؛ فإنه لم يقله عالمٌ معروف، وإنما يذكره مثلُ الثعلبيِّ في تفسيره عمَّن لا يسمَّى[3]، وفي تفسيره الغثُّ والسَّمين؛ فإنه حاطبُ ليل[4].

ولو كان مالُ قارون من الكيمياء لم يكن له بذلك اختصاص؛ فإن الذين عملوا الكيمياء خلقٌ كثيرٌ، والله سبحانه قال: {وءاتينه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوأُ بالعصبة أولى القوة} سورة القصص اية 76

[1] وقال في (السياسة الشرعية): (ولهذا لم يذكر الفقهاء ما يجب في الكيمياء كما يجب في المعدن والركاز؛ إذ كان للركاز حقيقة، وهي الكنوز العاديَّة التي تسمى المطالب، وليس للكيمياء حقيقة). والمطالب: الكنوز المدفونة. والعاديَّة: القديمة، نسبة إلى عاد. انظر: (الجماهر) للبيروني، و (تكملة المعاجم) و (تاج العروس) (عود).

[2] تقدم الكلام عن بعض المرويات المكذوبة في هذا الباب في التعليق على الدليل الثالث عشر.

[3] الكشف والبيان) للثعلبي).

[4] انظر: (منهاج السنة) و (مجموع الفتاوى) و (جامع الرسائل).

هذه المفسدة، أو كما قال، ثم أمرتُ المنادي فطرحها ببركة ماءٍ كانت هناك حتى فسَدت وهلكَت[1].

الدليل السادس والعشرون: ان عمدة الكيمياويِّين التي يعتمدون عليها أنهم قالوا: إن الفضَّة ذهبٌ لم يستكمل نضجَه[2]، فهي ذهبٌ مريض، فتعمَل النَّار والدواء المركَّب في إزالة مرضه وتكميل نضجه فيصير ذهبًا خالصًا[3]، وهذا كذبٌ وباطل؛ فإن الذهب يخالف الفضَّة بالحدِّ والماهيَّة، ولكلٍّ منهما مَعْدِنٌ يخصُّه غير مَعْدِنِ الآخر.

وقد ثبت عن النبي "ص" أنه قال: (الناسُ معادنُ كمعادن الذهب والفضَّة، خيارُهم في الجاهليَّة خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا)[4]. فشبَّه النبيُّ "ص" الناس في أصول أنسابهم

(1) (مجموع الفتاوى)
(2) في (رسائل إخوان الصفا): (وأما الفضة فإنها أقرب الجواهر الذائبة إلى اذئهب وهي باردة لينة معتدلة حتى تكاد تكون ذهبًا لولا أن غلب عليها البرد في معدنها قبل النضج). وانظر: (عجائب المخلوقات) للقزويني. و (المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية) للمقريزي.
(3) قال الرازي في (المباحث المشرقية): (من أراد أن يقلب النحاس فضة فهو لا يكون كالمحدِث لجوهر الشيء، بل كالمعالج للمريض؛ فإن النحاس من جوهر الفضة إلا أن فيه عللًا وأمراضًا، وكما يمكن المعالجة لا في موضع التكوُّن فكذلك في هذا الموضع). وبسط هذا المعنى ابن عربي في (الفتوحات المكية).
(4) الأصل: (للآخر)، وضبب عليها الناسخ.

بمعادن الذهب والفضَّة (1)، فكما أنَّ قريشًا ليس أصلُها أصلَ بني تميم، وعدنان ليس أصلُها أصلَ قحطان، والعربُ ليس أصلُهم أصلَ العجم، ولا أصلُ بني إسماعيل أصلَ بني إسرائيل، بل هذه معادنُ مختلفة، فكذلك اصلُ الذهب ليس أصلَ الفضَّة ولا مَعْدِنُه مَعْدِنُه، ولو قُدِّر أن مَعْدِن الذهب يكون فيه فضة ٌكما يكون في مَعْدِن الفضَّة نُحَاسٌ فذلك بمنزلة خَبَث المَعْدِن وما يخالطه من الأجزاء الغريبة المباينة لجوهره (2).

وأما قولهم: (إن الفضَّة ذهبٌ مريض، فتعمَل النأرُ والأدوية فيه حتى يبلغ كمالَه فيصير ذهبًا خالصًا)، فالعجبُ من عقل ٍمريضٍ يصدِّق بهذا الهذيان والمُحَال! وما للمرض وما لجوهر الفضَّة الذي أتقنَه الذي اتقن كلَّ شيء، وأودعه من المنافع ومصالح العباد ما هو آية على ربوبيَّته وحكمته وقدرته، وجعله قِوَامًا للناس في معاشهم ومصالحهم، وحليةً وزينةً لأهل جنَّته (3)، أفتراه يكون مريضًا هناك ايضًا؟!

ثم أيُّ مرضٍ فيه وهو تامٌّ في حقيقته، كاملٌ في ماهيَّته، مهيَّأٌ للنَّفع الذي خُلِق لأجله؟! بلى، مرضُه إما غريبٌ خارجٌ عن حقيقته؛ لخُبْثِه أو لضعف جوهره المعيَّن ومَعْدِنه؛ فإن الفضَّة متفاوتةٌ في الجودة والرَّداءة بحسب معادنها وذاتِها في أنفسِها كما يتفاوتُ الذهب والنُّحاسُ والرَّصاصُ والنباتُ والحيوانُ وسائر المخلوقات.

(1) انظر: (منهاج السنة). ووجه التشبيه في الحديث أعمً من ذلك. انظر: (إكمال المعلم)، و (المفهم)، و (المفاتيح)، و (التوضيح).

(2) انظر: (مجموع الفتاوى).

(3) كما في قوله سبحانه {وحُلَّوا أساور من فضة} سورة الانسان اية 21.

فأما أن يقال: إن جوهر الفضَّة ذهبٌ مريض إذا عُوفِيَ صار ذهباً خالصًا فهذا إنما يغترُّ به مريضُ العقل والدِّين، والحمدُ لله على العافية، وإيَّاه نسأل تمام النِّعمة والمعافاة (1).

الدليل السابع والعشرون: أن حكمة الله سبحانه اقتضت كونَ جوهر النَّقدَين أقلَّ من جوهر غيرهما من الحديد والنُحاس والرَّصاص ونحوها لتكون رؤوسًا للأموال، وقِيَمًا للأشياء، وأرُوشًا للجنايات، وأثمانًا لجميع الأعراض المطلوبة من الدُّنيا من اللباس والطعام والشراب والمساكن والمراكب وغيرها، فلو كَثُر وجودُهما، وسَهُل تناولُهما لتعطَّلت مصلحة العالَم، وأقاموا لهم جوهرًا آخر يكون أثمانًا ورؤوسا للأموال (2)، فلو كان البشر يمكنهم أن يُحْدِثوا

(1) قال شيخ الاسلام ابن تيمية: (ومن زعم من الكيمياوية أن الفضة ذهبٌ لم يستكمل نضجَه فقد كذب، بل لهذا مَعْدِن ولهذا مَعْدِن، ... ولو كانت الفضة إذا أُكْمِل طبخُها صارت ذهبًا لكان يخرج من معادن الفضة ذهب، إلا أن يقال: ليس من طبيعة ذلك المعدن حرارة طبخها، فيقال: هذا أيضًا ممَّا يبطل قول الكيمياوية؛ وذلك أن الله سبحانه يخلق الذهب في معادن بحرارة ورطوبة، ويخلقها في المَعْدِن كما يخلق الأجنَّة في بطون الأرحام، وكما يخلق في الحرث من الأشجار والزَّرع بحرارة يخلقها، وما يخلق به من الحرارة التي أودعها في تلك الأجسام لا تقوم مقامه حرارة النار التي نصنعها (نحن). (مجموع الفتاوى.

(2) قال ابن خلدون في (المقدمة) في سياق وجوه استحالة الكيمياء: (وله وجهٌ آخر في الاستحالة من جهة غايته؛ وذلك أن حكمة الله في الحَجَرين [وندورهما أنهما قِيَمٌ لمكاسب الناس ومتموَّلاتهم، فلو حصل عليهما بالصَّنعة لبطلت حكمة الله في ذلك، وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحدٌ من اقتنائهما على شيء.)

الذهب بالصِّناعات لكان أحدُهم يتَّخذ الذهب بالأوساق والغرائر [1]، وكان يُكَالُ بالمكاييل، ويكونُ في الأرض أمثال الحصا وغيرها [2].

ولهذا قال الكيمياويون: إن أصحابَ هذا العلم إنما قصَدوا بالتلبيس والإلغاز في مصنَّفاتهم هذا المعنى [3].

قالوا: لأن هذه الصِّناعة لو أرخصوها وكشفوها للعالم حتى تصير كصناعة الزُّجاج والصَّابون والفخَّار وغيرها لأُلْجِئ الناسُ المعاملة بغيرها، ولسقط انتفاعُ أهلها بها، فكان ينعكسُ عليهم مقصودُهم؛ إذ مقصودُهم الغَنَاء الأعظم بما يحصل بها من المال، فإذا جمع غِرارة، وهي وعاءٌ من الخيَش ونحوه.

(1) قال المصنف في (مفتاح دار السعادة)، وأصله في (الدلائل والاعتبار) المنسوب الى الجاحظ: (تأمَّل حكمة الله عز وجل في عزَّة هذين النقدَين: الذهب والفضة، وقصور حيلة العالم عمَّا حاولوا من صناعتهما والتشبُّه بخلق الله إياهما، مع شدَّة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم في ذلك، فلم يظفروا بسوى الصَّبغة. ولو مُكِّنوا من أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم، واستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صارا كالشَّقَف و الفخَّار، وكانت تتعطل المصلحة التى وُضِعا لأجلها، وكانت كثرتهما جدًا سببَ تعطل الانتفاع بهما؛ فإنه لا يبقى لهما قيمة، ويبطل كونهما قيما لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المُقَاتِل، ولم يتسخَّر بعضُ الناس لبعض؛ إذ يصير الكلُّ أربابَ ذهب وفضَّة، فلو أغنى خلقَه كلَّهم لأفقرهم كلَّهم، فمن يرضى لنفسه بامتهانها في الصِّنائع التي لا

قِوَام للعالم إلا بها؟! فسبحان من جعل عزَّتهما سببَ نظام العالم، ولم يجعلهما في العزَّ كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه، فتفوت المصلحة بالكلِّية، بل وضعهما وبثَّهما في العالم بقدرٍ اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده، ... وهذا أحدُ ما يدلُّ على بطلان صناعة الكيمياء، وأنها عند التحقيق زغلٌ وصِبغةٌ لا غير). وانظر هذا المعنى في (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للنيسابوري.

(2) كما قال الطغرائي في صدر رسالته (حقائق الاستشهادات): (وطلبك مني أن أكشف الحجاب عما أسَّره الأولون والآخرون، وجُبِلت الفطرة على كتمانه والصيانة له؛ نظرًا لصلاح العالَم، وحفظًا لنظامه). وقال في (جامع الأسرار): (فاعلم أن مبنى كلام القوم على الرمز، ولهم أوضاعُ واصلاحاتٌ لا يعرفها إلا من أخذ عنهم، أو ألهمه الله تعالى فكَّ رموزهم، كما أن لكل فرقة من أصحاب العلوم وأرباب الصنائع أوضاعًا وعُرفًا واصطلاحًا، وكما أن لواضعي التراجم أن يبدلوا أشكال الحروف كيف شاؤوا، ويضعوا بدل الحرف الواحد إما حرفًا أو عدة حروف، أو لفظًا دالًا على معنًى أوغير دالٍّ، أو يضعوا شكلًا واحدًا مكان حرفٍ أو حرفين أو عدة حروف، ويبالغ في التعمية والكتمان = فكذلك لأصحابنا أن يضعوا رموزهم، ويسمُّوا الشئ الواحد والتدبير الواحد بأسامٍ لا تنحصر تحت حدٍّ وعدٍّ، بحسب مبلغ علمهم وقوة رأيهم ... ، يحتاطون في الكتمان حتى لا يطلع على خبايا رموزهم وخفايا كنوزهم إلا من نفسه كنفوسهم).

وفي كتاب (سر الأسرار) المنسوب إلى جابر بن حيان الاعتذار لأهل هذه الصناعة على إبهامهم لها ووضعهم رموزها (بأن عمارة الدنيا بالدراهم

والدنانير، والصُّنَّاع والمُقَاتِلة لا يعملون إلا لرغبة أو رهبة، فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السِّرَّ حتى يعلمه كلُّ أحدٍ لم يتمَّ أمر الدنيا وخَرِبت، ولم يعمل أحدٌ لأحد، فخرجوا من ذلك وكتموه). نقله الآلوسي في (روح المعاني). على أن من بواعثهم المذكورة على استعمال الرموز: الخوف وطلب السلامة ممن ينكر عليهم أو لا يتورع عن قتلهم بحثًا عن سر الصنعة، بالإضافة إلى جشعهم وطمعهم وكراهتهم مشاركة غيرهم لهم. انظر: (الكنز الكبير) لمسكويه، و (الرمز في الكيمياء عند العرب) لمراد كامل، (مجلة مجمع اللغة العربية) بالقاهرة، (الجزء 19 1965)، و (قصة الرموز والمصطلحات والمعادلات في الكيمياء القديمة) لفرات فائق خطاب، مجلة المورد، (المجلد 6، العدد 4 1977، عدد خاص عن ((العلوم عند العرب

وانظر ما سيأتي في التعليق من كلام الماوردي وأنهم اتخذوا الرمز ليوهموا الشحَّ بعلمهم والأسف عليه، خديعةً للعقول الواهية والآراء الفاسدة.

ملأت الوجودَ زال ذلك الغَنَاء عنهم، وصار الذهب كالفُلوس [1] مثلًا.

فيقال: وهذا بعينه هو الحكمة التي اقتضت تقليلَ معدن الأثمان، فلو كان للبشر طريق الى تكثيره وإرخاصه لتعطَّلت الحكمةُ الإلهية المقتضية تقليلَه وعِزَّته.

واعتذارُكم بأن سلفَ الكيمياويِّين قصدوا بالتلبيس ذلك كلام ٌيكفي تصوُّره في العلم بفساده؛ فإنه مع تضمُّنه أن كتبَ القوم كتبُ تلبيسٍ لا كتبُ بيان، مع أنهم إنما صنَّفوها ووضعوها

للعاملين بها، وأمروهم بأن يقتدوا بها، ويقفوا عندما رَسَموا لهم فيها، وبالغوا بقدر إمكانهم في التقريب والتشبيه والأدلَّة والرد َّعلى من أبطل قولَهم = فكان مقتضى ما ذكرتم أن لا يضعوا فيها كتابًا ولا رسالةً أصلًا؛ لئلَّا يقعوا في المحذور الذي ذكرتم.

وما الذي يؤمِّنهم أن يقع ما دوَّنوه وصنَّفوه إلى من يَعْرِفُه فيوضِّحُه وبيِّنه ويكشفُ حقيقته؟! أفترى اتفقت آراء الكيمياويِّين على التَّلبيس والتَّدليس، ولم يُخْرِجِ الوجودُ منهم أحدًا يكشِف هذه الغمَّة ويزيل هذا اللَّبس، بل انطوت القرون والأعصار عليه، وتواصَوا كلُّهم بالتَّلبيس والكتمان؟! وهل هذا في الطبيعة الانسانية؟!

[1] جمع فَلْس، عملةٌ تصنع من النحاس أو الرصاص، وتسمى (النُّمِّيّ). انظر: (تاج العروس) (نمم)، و (المعجم الوسيط) (فلس)، و (معجم تيمور) (5/ 74)، و (النقود العربية وعلم النميات) لأنستاس الكرملي.

(ولكن من خلَع جلبابَ الحياء عن وجهه لا يبالي ما يقول، ولا ما يَنْصُر به باطلَه (1

قال الماوردي في (أدب الدنيا والدين): (فأما الرمز فلستَ تجده في علم معنويٍّ ولا في كلام لغويٍّ، وإنما يختصُّ (1) غالبًا بأحد شيئين:

1. إما بمذهب شنيع يخفيه معتقِدُه، ويجعل الرمز سببًا لتطلُّع النفوس إليه، واحتمالَ التأويل فيه سببًا لدفع التهمة عنه.
2. وإما لما يدَّعي أربابه أنه علمٌ مُعْوِز، وأن إدراكه بديعٌ مُعْجِز، كالصناعة التي وضعها أربابها اسمًا لعلم الكيمياء، فرمزوا بأوصافه، وأخفوا معانيه؛ ليوهموا الشحَّ به، والأسف عليه، خديعةً للعقول الواهية والآراء الفاسدة، ... ثم ليكونوا برآء من عهدة ما قالوه إذا جُرِّب. ولو كان ما تضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنًى صحيحًا و علمًا مستفادًا لخرج من الرمز الخفيِّ إلى العلم الجليِّ؛ فإن أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على سَتْرِ سليم وإخفاءِ مفيد.)

وألمَّ بهذا المعنى شهاب الدين الدَّلْجي في (الفلاكة والمفلكون) (30)، فقال بعد أن ذكر بعض حجج امتناع الكيمياء:
(ويزيد ذلك وضوحًا أن المذكور في كتب الكيمياء إنما هو رموز، فلو كان لها حقيقةٌ لصرَّحوا بها؛ فقد صرَّح العلماء بما هو أنفس من ذلك وأجلُّ قدرًا ممًا كان له حقيقة، ولا أقول: كحلِّ المشكلات، والجمع بين الأحاديث الصَّحيحة، والنِّكات القرآنية الشريفة؛ لئلا يكون تخليطًا في البحث، فإن البحث إنما هو في الأمور الدنيويَّة، بل ككتب ابن

وحشيَّة وغيره في الطِّلَّسمات الصحيحة، والفلاحة النافعة، وأنواع من السِّحر، هي في بابها كفَلَق الصُّبح، وفي نفاستها كالكيمياء أو فوقها، فلا يصحُّ التعليل بأنهم إنما كتموها تمويهًا ...).

وفي نقد رموزهم يقول ابن خلدون في (المقدمة) بعد أن ساق نصًا طويلًا لأحدهم: (وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تُعرف، وذلك دليلٌ على أنها ليست بصناعة طبيعية).

الدليل الثامن والعشرون: أنِّ العلل المؤثرة في تكوُّن الذهب في المعادن غير متحقِّقةٍ في الذهب المصنوع، وإنما يدَّعي الكيمياويُّون أن عللًا أخرى نظيرَها أو أقوى منها هي المؤثِّرة في الذهب المصنوع.

وحينئذٍ فيقال: العللُ المختلفة لا تقتضي أثرًا واحدًا، بل لا بدَّ أن تختلفَ معلولاتُها، فعِللُ الذهب المصنوع لمَّا كانت مغايرةً لعلل الذهب المخلوق وجب أن لا يستوي الذهبان في الحدِّ والحقيقة، وإذا وجب اختلافهما لاختلاف عللهما لم يبقَ بأيدي الكيمياويين إلا القدر المشترك بينهما من اللَّون والإشراق والرَّزانة.

ولا ريب أن العلل المختلفة قد يَصْدُر عنها لوازمُ متَّفقة، فأما أن تكون المعلولاتُ واحدًا بالحقيقة مع تباين عِلَلها فمحال.

فمن ادَّعى مساواة الذهب المصنوع للذهب المخلوق فقد التزم أحدَ امرين باطلين:-

1. إما اتفاق العلل، وهو باطل.

2. وإما صدور المعلول الواحد عن العلل المختلفة، هو باطل.

وهذا المُحَال إنما لَزِم من اعتقاد المساواة بينهما في الحقيقة، فيكون باطلًا، فثبت الاختلافُ في الحقيقة نفسها، وهو المطلوب.

الدليل التاسع والعشرون: أن صناعة الكيمياء لو كانت صناعةً صحيحةً لكانت أشرفَ صناعة ٍفي العالم، وأعظمَها قدرًا، وأكثرها نفعًا.

وما كان من الصَّنائع سبيلُها هذا فإن هِمَم العالَم ودواعيهم تتوفَّر عليها علمًا وعملًا، ويتنافسون فيها غاية المنافسة، ويكون البحثُ فيها أتمَّ، وصقلُ الأذهان لها أعظم، وأصولُها أحفظَ عند العقلاء من أصول غيرها، ويكون أهلُها ملوكَ أرباب الصِّناعات وأشرافَهم، والمرموقون بعين التعظيم والإجلال، ونسبتُهم إلى العالم كنسبة أكابر التُجَّار إلى أقلِّ الباعة، ولكانوا أغنى الناس.

هذا هو الذي تقتضيه عقولُ الناس ومعرفتُهم بمراتب العلوم والاعمال، واقلُّ الأقسامِ أن يكونوا بينهم كالزَّجَّاجِين والصَّابونيِّين والفاخُوريِّين، وأنت ترى تعظيمَهم (1) وتبجيلَهم للمهندسين وأرباب العلوم التي لا تصل مرتبتُها إلى مرتبة صناعة الذهب.

والذي عليه الوجودُ إنما هو عكسُ ذلك، فإنهم قد ضُرِبَت عليهم الذِّلَّة، وأُلْبِسُوا ثوبَ المَخافة والفقر الزائد، فلا يمكِنُ أحدَهم يعيشُ بين الناس إلا إما متواريًا مدسوسًا في سِرْب أو نفَقٍ

(1) تعظيم الناس.

تحت الأرض، أو في مكان منقطع عن الناس، او في جاه متولٍّ طمَّاع (1).

هذا مع أنهم أفقرُ العالَم، وأسوؤهم عيشًا، وأتعبُهم قلوبًا، وأطولُهم أحزانًا، وأصفرُهم وجوهًا. قال لي بعض الناس: (إني لأعرفُ الكيمياويَّ بصَفَار وجهه، وكآبة منظره، وذلَّة أكتافه!).

ومن عرف الناسَ علم صحَّة هذا.

(1) انظر: (مجموع الفتاوى). ونحو هذا قول المصنف عن المنجِّمين في (مفتاح دار السعادة): (وأهلُ هذا العلم أذلُّ الناس في الدنيا، لايمكنُ أحدًا منهم أن يأكل رزقه بهذا العلم إلا بأعظم ذلٍّ، وعزيزُهم لا بد أن يتعبد وينضوي إلى مكَّاسٍ أو ديوانٍ أو والٍ يكون تحت ظلِّه وفي كنفه، وسائرهم على الطرقات وفي كِسَر الحوانيت مُدَسَّسين).

وفي المدلسين منهم يقول ابن خلدون في (المقدمة): (ومعظمهم هذا الصِّنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية، ويموِّهون على الأغبياء مهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة، والنفوس مولعةٌ بحبِّهما والاستهلاك في طلبهما، فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبتغى ذلك عندهم تحت الخوف والرِّقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرُّون إلى مكان آخر ...).

فيا لله العجب، يكونُ الحائكُ والدَّبَّاغُ والحَدَّادُ والكنَّاسُ والطَّيَّانُ في سَعة العيش، وطِيب النَّفس، وانشراح الصَّدر وماويَّة الوجه [1]، وقوَّة القلب، ويكونُ صانع الذهب بالحال المعلومة عند الناس!

وهذا من أكبر الدلائلِ على أن صناعته غِشٌّ وزَغَل، فأعطاه صانعُ العالَم الحليمُ العليمُ بين الناس ما يناسبُ حالَه من الذُّلِّ والخوف والفقر والحزن المناسب لحال أهل الفِرية والمُحَال {جزاء وفاقا} سورة النبأ آية 26، {سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم} سورة الانعام اية 139. {وما ربك بظلَّام للعبيد} سورة فصلت اية 46

الدليل الثلاثون: أنه ليس مع الكيمياويِّين دليلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على صحتِّها، بل أدلتَّهم كلُّها باطلة.

وهذا الدليلُ وإن لم يستلزم بطلان المدلول؛ إذ لا يلزمُ مِن بطلان الدليل بطلانُ المدلول؛ لجواز أن يكون المدلولُ ثابتًا في نفس الأمر ولا دليلَ عليه، فالدليلُ ملزوم، والمدلول لازم، وكلُّ ملزوم دليلٌ على لازمه، ولا يلزم من انتفاء الملزوم انتفاءُ اللازم، ويلزم من وجود الملزوم وجودُ لازمه إلا أن انتفاء الدَّليل يوجبُ انتفاءَ العلم بالمدلول [2]، فإذا بطلَ الدليلُ بطلَ العلمُ بالمدلول، فدعواهم علمَهم بصحَّة الكيمياء دعوى بلا علم، فتكون باطلة.

[1] ترقرق الماء في وجهه من النضرة، وذلك في مقابل صفار وجه الكيمياوي. وانظر: (الداء والدواء).
[2] انظر: (بيان المختصر)، و (تشنيف المسامع)، و (شرح الكوكب المنير).

:-وهذه الطريق إنما تتمُّ بذكر أدلَّتهم التي اعتمدوا عليها، وبيان بطلانها وأشهرها أربعة

أحدها: حجَّة صاحب (الملخَّص) [1] على إمكانها ووقوعها.

قال: (إما الإمكان العقليُّ فثابت؛ لأن الأجسام مشتركة في الجسميَّة، فوجب أن يصحَّ على كلٍّ واحدٍ منها ما يصحُّ على الكلِّ [2]).

وأما الوقوع فلأن انفصال الذهب عن غيره باللون والرَّزانة، وكلُّ واحدٍ منهما يمكن اكتسابه، ولا منافاة بينهما. نعم، الطريقُ إليه عَسِر) [3].

:-قلت: وهذا الدليل مبنيٌّ على مقدِّمتين باطلتين

أحدهما [4]: أن الأجسام متماثلة.

وهذا باطل، ولم يذكر أصحابُ هذا القول عليه دليلًا صحيحًا، وقد أبطلَ أفضلُ متأخريهم [4])

[1] الملخص في الحكمة والمنطق) لفخر الدين الرازي).

[2] (الملخص): (على الكل على ما ثبت).

[3] (الملخص). وقرر الحجة كذلك في (المباحث المشرقية)، ونقلها عنه بلفظ آخر الكاتبي في (المنصَّص شرح الملخَّص).

[4] كذا في الأصل، من الحمل على المعنى بتذكير المؤنث، وهو سائغٌ في العربية، ومألوفٌ في أسلوب المصنف.

[5] السيف الآمدي. والأكثر عند المصنف إطلاق هذا الوصف على الرازي، وأطلقه في مواضع على ابن سينا.

أدلَّتهم على ذلك جميعَها[1].

وأقوى ما استدلوا به: أن الأجسام متساويةٌ في كونها شاغلةً للأحياز، وقابلةً للأعراض، وإذا حصل الاستواءُ في هذه المعاني حصل الاستواءُ في تمام الماهيَّة، فلزم التماثل.

وهذا غير صحيح؛ لأن قبولَها للأعراض، وشغلَها للأحياز، لوازمُ لها وأحكام، ويجوز اشتراكُ المختلفات في لوازم وأحكام متعدِّدة.

واستدلُّوا بأن الجسم يمكن تقسيمُه إلى الفلكيِّ والعنصريِّ، واللطيف والكثيف، والحارِّ والبارد، والأرضيِّ والعُلْويِّ، وغير ذلك.

ومورِدُ التقسيم مشتركٌ بين الأقسام، فكونه جسمًا مفهومٌ واحدٌ مشتركٌ بين الكلِّ.

وهذا الدليل أيضًا باطل؛ لأن مورد التقسيم وإن وجبَ أن يكون مشتركاً بين الأقسام لكن لا يلزم أن تكون متساويةً فيه، ولهذا تقسَّم الصِّفة إلى الصِّفة النفسانيَّة والجسمانيَّة، وإلى اللون والطعم والرائحة، والكلام والسَّمع والبصر، وغير ذلك، ولا يقتضي ذلك تساوي الصفات في كونها صفاتٍ وإلا لزم أن يكون اختلافُها بسبب صفاتٍ أخرى، ويلزم التسلسلُ الباطل، فثبت أن اختلافها لذوتها مع شمول مورد التقسيم لها.

(1) انظر: (أبكار الأفكار) للآمدي، و (درء التعارض)، و (منهاج السنة)، و (مجموع الفتاوى).

حقيقتها ومواقف العلماء منها

.المقدمة الثانية: أن الذهبَ إنما ينفصلُ عن غيره من الجواهر باللَّون والرَّزانة فقط

وهذه مقدمةٌ باطلةٌ أقلُّ ما في باب معارضتُها بمثلها، وهي أن يقال: الذهبُ المخلوقُ المَعْدِنِيُّ والمصنوع الكيمياويُّ إنما اشتركا في اللَّون والرَّزانة والاشتراكُ في بعض الصِّفات .لا يقتضي التماثلَ في الماهيَّة والحقيقة؛ لاشتراك المختلفات في بعض اللوازم والأحكام

وأيضًا فالذهبُ إنما انفصلَ عن غيره لجوهره المختصِّ به، وحقيقتِه التي باينَ بها غيرَه وكان بها هو ما هو، لا لمجرَّد الرَّزانة واللَّون؛ فإن حقيقة الذهبيَّة أمرٌ وراء الرَّزانة واللَّون .بها صار الذهبُ ذهبًا

وأيضًا فإن الرَّزانة واللَّون وصفٌ عَرَضِيٌّ للذهب، لا ذاتِيٌّ له، والنوعُ لا ينفصل عن غيره .لمجرَّد الأمور العَرَضِيَّة، وإنما ينفصلُ عن غيره بذاتيَّاته وحقيقته وإنِّيَّتِه [1] الخاصَّة به

الدليل الثاني لهم: الزُّجاج [2]؛ فإنهم قالوا: هو أدلُّ شيء على صحَّة الكيمياء؛ فإن أجزاءه .بالتركيب والنار اكتسبت حقيقةً أخرى وخلعَت تلك الصِّفات التي كانت لها أوَّلًا

.(الإنِّيَّة: تحقُّق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية. (التعريفات) (38 (1)
وقد احتجَّ القاضي عياض على أن الكيمياء من الممكن الموجود. انظر: (مذاهب الحكام في نوازل الأحكام)، و (2)
(المعيار المعرب). واحتجَّ به كذلك القاضي

الفاضل على من أنكر وقوع الكيمياء عقلًا، في حكاية ذكرها أسعد ابن المطران في (بستان الأطباء).

وأطال الجاحظ في كتاب (الحيوان) الكلام على هذا الدليل على طريقته في النظر والاستشكال والاستطالة بالعقل، وحاصل كلامه امتناع تحويل المعدن إلى ذهب بخلاف تحويل الرمل إلى زجاج، وأنه (قد يكون أن يجئ على جهة التوليد شئٌ يبعد في الوهم مجيئه، ويمتنع شئٌ هو أقرب في الوهم من غيره؛ لأن حقائق الأمور ومغيَّبات الأشياء لا تُرَدُّ إلى ظاهر الرأي).

وقد كان من ضمن أسئلته لأحمد بن عبد الوعاب الكاتب في رسالته الساخرة (التربيع والتدوير): (وما سبب صنعة الزجاج؟ وما قصة الرخام؟ أكيمياءٌ أم مخلوق؟ ولم امتنَع عملُ الذهب و الزجاجُ أعجب منه؟).

ولبعض المستشرقين بحث عن الكيمياء عند الجاحظ. تنظر: (تاريخ الأدب العربي) لبروكلمان.

وهذا دليلٌ باطل؛ فإن الزجاج لم يكن إلا بالصَّنعة، ليس كائنًا بالخِلْقة، فهو كسائر الصِّناعات المركَّبة من الأدوية والمَعَاجين والأطعمة وغيرها (1). ومن أنكر أن تكون الأجزاء المختلفة

(1) قال شيخ الإسلام: (ومن أعظم حجج الكيمياوية: استدلالهم بالزُّجاج، وقالوا: فإن الزجاج معمولٌ من الرمل والحصى ونحو ذلك. فقاسوا على ذلك ما يعملونه من الكيمياء، وهذه حجةٌ فاسدة؛ فإن الله ?] لم [يخلق للناس زجاجًا لا في معدنٍ ولا غيره، وإنما الزجاج من قسم المصنوعات، كالآجرِّ و الفخَّار ونحوهما ممَّا يُطْبَخ في النار. وقد تقدَّم أن الله? جعل لبني آدم قدرةً على أن يعملوا أنواعًا من المطاعم والملابس والمساكن، وكذلك جعل لهم قدرةً على ما يصنعونه من الآنية من الفخَّار والزُّجاج ونحو ذلك، ولم يخلق لهم سبيلًا على أن يصنعوا مثل ما خلق الله. وإذا تبيَّن أن الزجاج من قسم المصنوعات دون المخلوقات ليس فيه ما يشتبه المصنوع بالمخلوق = بطلت حجَّة الكيمياء؛ فإن أصل المخلوقات التي خلقها الله لا يمكن البشر أن يصنعوا مثلها، ولا يمكنهم نقلُ نوعٍ مخلوقٍ من الحيوان والنبات والمعدن إلى نوعٍ آخر مخلوق، وهذا مطَّردٌ لا يُنْقَض). (مجموع الفتاوى). وانظر تقرير هذا المعنى في (المجادلة بين الحكيمين) للموفق البغدادي، ورسالته في (المعادن وإبطال الكيمياء).

إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض، ورُكِّبَت تركيبًا خاصًّا، وطُبِخَت بالنَّار طبخًا معلومًا، يَحْدُث لها هيئةٌ أخرى غير هيئتها الإفرادية؟!

ونحن هكذا نقول في الذهب المصنوع: إن هيئتَه وصفاته مغايرةٌ لهيئة مفرداته وصفاتها، لا نُنازع فيه، ولكن هل يدلُّ هذا على أن حقيقتَه مساويةٌ لحقيقة الذهب المَعْدِنِيِّ؟ وهل الشأنُ إلا في ذلك؟ وهل يمكنُ بشرًا على وجه الأرض أن يقيم دليلًا على ذلك؟

فغاية أدلَّتكم إنما تدلُّ على أن مفردات الذهب المصنوع اكتست صورةً خاصَّةً غير صورتها الإفراديَّة، وهذا حقٌّ، فمن أين لكم أنها انقلبت ذهبًا خالصًا مماثلًا للمَعْدِنِيِّ من كل وجه؟!

الدليل الثالث لهم: الصَّابون.

والكلام فيه كالكلام في الزُّجاج سواء، ونحن راضون منكم أن تجعلوا الذهب المصنوع مثل الصَّابون والزُّجاج، فإنهما لم يتضمَّنا قلبَ حقيقة مفرداتهما بحيث تبقى مماثلةً لحقيقةِ خلقها الله في معادنها، وإنما غايتُهما أنهما حَصَلا من تركيب مفرداتٍ تركيبًا خاصًّا حدثت لها بالتركيب والنَّار صفةٌ لم تكن لها، كالأطعمة المركَّبة وغيرها.

الدليل الرابع لهم: التِّرياق[1].

والكلام فيه كالكلام في الزُّجاج والصَّابون، وهل التِّرياقُ إلا دواءٌ من الأدوية المركَّبة؟ فله حكمُ أمثاله من الأدوية التي تَفْعَل بتركيبها ما لا تَفْعَل مفرداتُ مركَّبها، فأيُّ دليل في هذا على

(1) المباحث المشرقية). وقال التفتازاني في (شرح المقاصد): (وكفى بصنعة الترياق وما فيه من الخواصِّ والآثار شاهدًا على إمكان ذلك).

صحَّة علم الكيمياء وجوازها؟ وهل الاستدلال بهذه الأمور إلا تعلُّقٌ بأوهن البيوت؟ وكان الأولى بالمستدلِّ بها أن يرغب عنها إلى السُّكوت، فما زادها استدلالُه بها إلا ضعفا، وتبينَ فسادها لمن كان فسادها عليه يخفى!

وقد استدلَّ بعض فضلائهم (1) على إمكان أن يوجد بالصِّناعة نظيرُ ما خلقه الله، بأن قال: نحن يمكن أن نوجد بالصِّناعة ما يوجدُ بالطبيعة، كالنَّار الحاصلة بالقَدْح، والرِّيح الحاصلة بتحريك المَرَاوح وأكواز الفُقَّاع (2)، والنُّوشَاذِر (3)، قد يتَّخذ من الشَّعر (4).

(1) الرازي في (المباحث المشرقية).
(2) الفُقَّاع: شرابٌ يتخذ من الشعير، سُمِّي بذلك لما يعلوه من الفُقَّاعات، ويوضع في أكواز فخَّار مختومة فإذا فُتِحَت خرج منها الهواء بسرعة، كبعض المشروبات اليوم، وللشعراء في وصفها تفنُّنٌ كثير. انظر: (المعجم الوسيط) (فقع)، و (ديوان المعاني)، و (إرشاد الأريب)، و (مرآة الزمان)).
(3) بالذال والدال، وبإشباع ضمة النون واختلاسها، ملح حجري يسمى كبريت الدخان وملح النار، يستعمل في صنعة الكيمياء ويرمزون له برموز كثيرة، ويوجد فيه مركب (كلوريد الأمونيوم)، انظر: (الحيوان)، و (المفاتيح العلوم)، و (ربيع الأبرار)، و (المعتمد في الأدوية)،، و (التذكرة)، و (عجائب المخلوقات)، و (مسالك الأبصار)، و (الرمز في الكيمياء عند العرب)، ولضبط حرف الذال: (مجلة الرسالة) (العدد 475 10 أغسطس 1942) مقال أنستاس الكرملي في تصحيح (كتاب (الإمتاع والمؤانسة).
(4) تحرف في الأصل هنا والموضوعين الآتيين إلى (الشعير).

وهذا غيرُ صحيح فإن النَّار كانت كامنة في الجسم، وإنما ظهرت بحَكٍّ أحد الجسمين للآخر، فالصِّناعة لم تُحْدِث النَّار وإنما أظهرَت ما كان كامنًا في الزِّناد، ولهذا يظهرُ بغير صناعةٍ أصلًا ولا قصدٍ ولا إرادة، كما تَقْدَحُ بِعَالُ الخيل النَّار من الحجارة، قال تعالى: {والعاديت ضبحا (1) فالموريت قدحا} سورة العاديات اية 1 إلى 2. فأين هذا من إحداث ذهبٍ خالصٍ مماثلٍ للذهب الذي خلقه الله في مَعْدِنه لولا التشبُّث بالمُحَال؟!

وأما الرِّيحُ الحادثة عند تحريك المَرَاوح، فإن تحريكَها لم يُحْدِث ريحًا كانت معدومة، وإنما حرَّك هواءً ساكنًا ليس إلَّا، فعملُ حركةِ المَرَاوح في تحريكه لا في إيجاده، فلم يوجَد بالصِّناعة مثلُ ما وُجِد بالخلقة أصلًا، بل جعل الله للعبد قدرةً على نقل ما خلقه من مكانٍ إلى مكان، فإذا حرَّك الهواء بالمَرْوَحة انتقل من مكانٍ إلى مكانٍ كما ينتقل الماءُ من العَين إلى داره وبئره ونحو ذلك.

وكذلك الرِّيحُ الحادثة من أكواز الفُقَّاع، إنما هي هواءٌ احتَبس فيه واحتقَن، ثم أُفْرِجَ عنه، فمرَّ صاعدًا بسرعة.

وأما اتخاذ النُّوشَاذِر من الشَّعر، فهو نُوشَاذِرٌ مصنوع، والشَّعرُ مادَّةٌ من موادِّه، وله موادٌّ أُخَرُ معروفة، وهل ذلك دليلٌ على أنه مساوٍ لنُوشَاذِرٍ مَعْدِنِيٍّ من كل وجه؟ فإن كان في المعادن نُوشَاذِرٌ فالكلام في المَعْدِنِيِّ منه والمصنوع كالكلام في الذهب المصنوع والمَعْدِنِيِّ، وإن كان النُّوشَاذِرُ مصنوعًا ليس إلَّا فهو كالزُّجاج والصَّابون والتِّرياق ونظائر ذلك.

وإذا عُلم بطلانُ أدلَّتهم عُلِم بطلانُ العلم بمدلولها، وهو المطلوب [1].

ومن أدلة الكيمياويين: الاحتجاج بآيات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق العادات على إمكان الكيمياء وصحَّتها (1).

قال ابن حجر الهيتمي في (تحفة المحتاج): (اختلف في انقلاب الشئ عن حقيقته، كالنحاس إلى الذهب، فقيل: نعم؛ لانقلاب العصا ثعبانًا حقيقة، بدليل (فإذا هي حية تسعى)، وإلا لبطل الإعجاز. ولا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ذلك وتخصيص الإراده له. وقيل: لا؛ لأن قلب الحقائق محال، والقدرة لاتتعلّق به. والحقُّ الأول، بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس ذهبًا، على ما هو رأي المحققين، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصفَ الذي صار به نحاسًا؛ لامتناع كون الشئ في الزمن الواحد نحاسًا وذهبًا، ومن ثمَّ اتفق أئمة التفسير على ما مرَّ في العصا بأحد هذين الاعتبارين المذكورين). وانظر تسليمه بحصول الكيمياء للقليل من الناس، وتفريقه بينها وبين معجزات الأنبياء في (الإعلام بقواطع الإسلام)، وهو منقولٌ بنصه عن (الفروق) للقرافي.

ومن الاستدلال بخرق العادات ما ذكره الطوفي من احتجاج بعض الكيمياويين بمسخ بعض بني إسرائيل قردة وخنازير، فقال في (الإشارات الإلهية): (واحتجَّ أهل الكيمياء على إمكانها بهذا؛ إذ ليس فيها إلا نقل صورة معدن إلى معدن، كما ينقل صورة عنصر إلى عنصر، كالماء هواءً، والهواء نارًا، وبالعكس، وكانتقال الإنسان خنزيرًا قردًا كذلك تنتقل الصورة النحاسَّة مثلًا أو الفضيَّة ذهبيَّةً ونحوه.

والفاعل لذلك عند الجمهور هو الله ?، والصانع كاسب، فلم يبق للمنع من إمكان ذلك وجه. ومن زعم أن الكيمياء خلق الذهب والفضة أو غيرهما، وذلك محالٌ من غير الله ? = فقد وَهِم، وإنما هي كما ذكرنا نقل صورة إلى غيرها من الأعيان لا خلق مادَّة واختراعها، غير أن الاشتغال في الكيمياء قطعُ وقتٍ عتيد في طلب أمرٍ بعيد، وذلك جهلٌ شديد). ونحو ما ذكره في (3/ 15) من احتجاج أهل الكيمياء بما صنعه السامريُّ حين قبض قبضة من أثر جبريل، فألقاها على العجل الذي صنعه، فتحرَّك وخار، قال: (فكان ذلك التراب إكسير الحياة، كإكسير الذهب. ويحتجُّ بهذا أصحابُ الكيمياء؛ لأن الجماد إذا جاز أن ينتقل إلى الحيوان بجوهرٍ يضاف إليه، فانتقاله إلى رتبة أخرى من رتب الجماد بجوهر يضاف إليه أولى بالجواز).

ولا دليل لهم في جميع ذلك؛ فإن الكيمياء صناعة، وآية النبيِّ وكرامة الوليِّ وخوارق العادات الواقعة بأمر الله حقائق مخلوقة، وليست من الصناعة في شئ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (خرق العادات للأولياء جائز، مثل أن يصير النبات ذهبًا. وذلك مما لا يكون طريقه طريق الكيمياء المعمولة بالمعالجات الطبيعية، وبين هذين من الفرق ما بين عصا موسى وعصِّ السَّحرة؛ فإن تلك كانت حيَّةً تسعى، وتلك يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى). (مجموع الفتاوى)

وقال في (السياسة الشرعية): (قد يخرق العادة لمن شاء من عباده بمعجزات الأبياء وبكرامات الصالحين، ولكن ذلك لا يقف على الأسباب التي يتعاطاها أهل

الغشِّ من الكيمياوية و السَّحرة، بل قد يقلب الله الباذنجان والحصى ذهبًا وفضةً لمن يشاء).

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (فأما ما يجريه الله تعالى من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبًا او فضة أو نحو ذلك، فهذا أمرٌ لا ينكره مسلم، ولا يردُّه مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصِّناعات، وإنما هذا عن مشيئة ربِّ الأرض و السماوات واختياره وفعله).

وحين أنكر الزجاج في (معاني القرآن) تفسير قوله: {على علم عندي} بالكيمياء، وقال: (هذا لا يصح؛ لأن الكيمياء باطلٌ لا حقيقة له) تعقبه الطيبي في (فتوح الغيب) بقوله: (لعل ذلك كان من قبيل المعجزة)، فلو صحَّ لقارون تحويل المعادن إلى ذهب فإنما يصحُّ ذلك على وجه المعجزة و خرق العادة لا الصناعة.

وحرَّر ذلك الدَّلْجي في (الفلاكة و المفلوكون) فقال: (وأما الكيمياء فلا بحث في إمكانها على يد وليٍّ من قبيل الكرامات وخرق العادات، ولا في الوصول إلى تصحيح صبغها ظاهرًا على وجه التلبيس والغشِّ كما يفعله الفسَّاق، إنما في تصيير النحاس ذهبًا حقيقةً على طريقةٍ صناعية مطردة فهذا ممَّا لا أعتقد صحته).

وكذا قال النجم الغزي في (حسن التنبه): (الكيمياء إن كانت بحيث تقلب عينَ الحديد أو النحاس مثلًا ذهبًا أو فضة بغير صناعةٍ ولا ضمِّ شئ آخر فهذا ليس من باب العمل، ولكنه من باب خرق العادة، فإن كان صاحبه صالحًا فهو من باب

وكذلك قال الآلوسي في (روح المعاني): (وسمعت من بعض الناس أن أهل الكيمياء تكلموا في هذه الآية على ما يوافق غرضهم، ولم أقف على ذلك).

وقد ساق الطوفي استدلالهم هذا، وهو ممن يلين القول في الكيمياء كما مرَّ، ولا بأس من ذكره بتمامه لعزة موضعه، قال في (الإكسير في قواعد التفسير): (واعلم أن القرآن بحرٌ لا تستوفى مطالبه، ولا تنقضي عجائبه، كما جاء في الخبر؛ ولهذا غالب طوائف العالم يتمسَّكون على دواعهم بشُبَه. فهؤلاء أصحاب الكيمياء يتمسَّكون على صحَّتها بقوله تعالى: {وأنزل من السماء ماء} إلى قوله {فأما الزّبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}، يشيرون إلى أن معناه: أن في الغثاء ما إذا خالط المعادن الممتزجة سطا عليها بطبعه، فميَّز الإكسير النافع منها وأفرده عن المزاج الزَّبدي الذي لا نفع فيه، أو إلى أنه بالوقيد والتقصية يحصل ذلك. ولا شكَّ أن اللفظ يحتمل احتمالًا ما ذكروه، إلا أنه ليس مرادًا منه باتفاق المفسرين، وإنما هو مثلٌ ضربه الله تعالى للإيمان والكفر، والحق والباطل وشبَّهه بماء الغيث الذي تجري به الأودية فيحمل الغثاء، وهو ما تحمله من عودٍ أو شجر أو غيره، ولذلك فالغثاء -وهو الزَّبد- يذهب جفاءً أي يلقى مطَّرحًا، وينتفع بالماء بما ينبت من الكلأ ويروي من الظمأ، وبالمعادن كالحديد والصفر والنحاس إذا عولجت بالنار، فإنها تذهب خبثها وما لا ينتفع منها، ويبقى الجوهر الصافي ينتفع به باتخاذه حليةً أو متاعًا. وذكر بعض المفسرين أن معنى قوله: {فيمكث في الأرض} أن المعادن تقذف زبدها فتلقيه

ويبقى خالصها مستترة في مستقر من الأرض، وهذا موافقٌ لقول الكيميائيين). وما زعمه (من احتمال الآية لما ذكروه بعيدٌ لا يجري على (قواعد التفسير.

- ومما يمكن ذكره من الأدلة على بطلان الكيمياء وتحريمها ممَّا لم يورده المصنف وله تعلقٌ بالدليل الرابع عشر: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من أن الكيمياء لم يعملها رجلٌ له في الأمة لسانُ صِدقٍ، لا عالمٌ متَّبع، ولا شيخٌ يقتدى به، ولا ملك عادل، ولا وزيرٌ ناصح، وإنما يفعلها شيخٌ ضالٌّ مبطلٌّ مثل ابن سبعين وأمثاله، أو ملكٌ ظالمٌ مثل بني عبيد، أو رجلٌ فاجر. وإن التبس أمرُها على بعض أهل العقل والدين فغالبهم ينكشف لهم أمرها في الآخر ولا يستطيعون عملها؛ صيانةً من الله لهم لحسن قصدهم. قال: وما أعلم أن رجلًا من خيار المسلمين أنفق منها أو أكل منها. ويكفي أن خيار هذه الأمة من القرون الذين بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم الذين يلوهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم لم يدخلوا في شئ من هذا؛ إذ لو كانت حلالًا لدخلوا فيها كما دخلوا في سائر المباحث؛ فإنهم كانوا يكتسبون الأموال بالوجوه، واكتسابُ المال مع إنفاقه في طاعة الله عملٌ صالح. .((مجموع الفتاوى)، و (جامع المسائل

- ومن حجج بطلان الكيمياء وفسادها وله تعلقٌ بالدليل الرابع عشر أيضًا ما ذكره القاضي عبد الجبار المعتزلي، قال: (لو جوَّزنا أن يكون في الناس من يقدرعلى خلق الجسم والحياة والألوان لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب، لكنَّا نرى من يدَّعي السِّحر متوصِّلًا إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد، فعلمنا كذبه. وبهذا الطريق نعلم فساد ما يدَّعيه قومٌ من

الكيمياء؛ لأنَّا نقول: لو أمكنهم ببعض الأدوية أن يقلبوا غير الذهب ذهبًا لكان إما أن يمكنهم ذلك بالقليل من الأموال، فكان ينبغي أن يغنوا أنفسهم بذلك عن المشقَّة والذِّلَّة، أو لا يمكنهم إلا بلآلات العِظام والأموال الخطيرة، فكان يجب أن يُظْهِرُوا ذلك للملوك المتمكنين من ذلك، بل كان يجب أن يفطن الملوك لذلك؛ لأنه أنفع لهم من فتح البلاد الذي لا يتمُّ إلا بإخراج الأموال والكنوز، وفي علمنا بانصراف النفوس والهمم عن ذلك دلالةٌ على فساد هذا القول). (مفاتيح الغيب) للرازي.

ونقل في (تثبيت دلائل النبوة) قول أبي القاسم الكعبي البلخي لأبي بكر الرازي في سياق طويل: ما رأيتُ أحمق منك! تدَّعي صحة الكيمياء، وأنك تجعل الحجر و المدر ذهبًا وفضة، ولك في ذلك كتبٌ تنكر على من أنكر ذلك وكذَّب به، ومع هذا فقد خاصمَتك امرأتك في نفقتها ونفقة ولدٍ لك، وأحوجتَها إلى أن رفعَتك إلى الحكَّام ليفرضوا عليك كما يُفْعَل ذلك بأفق الناس أقلِّهم حيلة!

وحكاه ابن العبري في (تاريخ مختصر الدول) مختصرًا، ودافع عن الرازي بأن ذلك لا يبعد أن يكون قول حاسد. وما قاله هو الأبعد؛ فإن الكعبي لا يجرؤ على أن يجبَه الرازيَّ بمثل هذا بحضرة السلطان لو لم يكن منه على ثقة، وأيًّا ما كان فليس ثبوت هذا مما يقوم وحده بالحجة.

فصل

فإذا تقرَّر بطلانُها وأنها زَغَلٌ وغِشٌّ، فحكمُها حكمُ أمثالها من المغشوشات (1)، فلا يحلُّ عملُها، ولا بيعُها، ولا إنفاقُها، ولا تعليمُها، إلا على وجه بيان بطلانها كما يبيَّن بطلان السِّحر والكفر.

وقد ثبت عن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (من غشَّنا فليس منَّا) (2).

وهذه الصِّناعة من أعظم الغِشِّ (3).

(1) انظر: (مجموع الفتاوى).
(2) أخرجه المسلم (101).
(3) قال الإمام الخطابي في (أعلام الحديث) في حديث النهي عن وصل الشعر ولعن الله الواصلة والمستوصلة: (وإنما نُهِي عن ذلك لما فيه من الغشِّ والخداع، ولو رخِّص في ذلك لاتُّخِذ وسيلة إلى أنواع من الغشِّ والفساد، وإنما عظم الوعيد في هذا باللعن وفي النامصة والواشرة الواشمة ونحوها مما تقدم ذكره ومضى تفسيره قبلُ من جهة أن هذه الأمور تغييرٌ للخلقة وتعاط لإلحاق الصَّنعة من الآدمي بالخلقة من الله?، وحكم الجزء في ذلك حكم الكل، ولعله قد يدخل في هذا المعنى صنعة الكيمياء؛ فإن من تعاطاها إنما يروم أن يُلْحِق الصَّنعة بالخِلقة، وكذلك هو في كل مصنوع يشبَّه بمطبوع، وهو بابٌ من الفساد العظيم).
وانظر: (السياسة الشرعية) لابن تيمية.

فلا يحلُّ لمسلم تعاطيها ولا إنفاقُها على المسلمين، ومن اشترى من معمولها شيئًا وعَلِمَ به فله ردُّه، بل العقدُ عليه باطل؛ لأنه غير النَّقد الذي وقع عليه العقد، بل هو بمنزلة المغشوش من الأثمان[1].

(1) قال ابن الحاج في (المدخل): (وأما الاشتغال بتحصيل علم الكيمياء فهو من الباطل البيِّن، والغِشّ المتعدِّي ضرره لأهل زمانه ومن بعدهم، وذلك أن من فعلها فقد خلط على الناس أموالهم، وبخَسَها عليهم؛ إذ أنهم مختلفون في فعلها، فمنهم من يعملها ولا علم عنده أنها تتغَّير بعد زمان، وذلك الزمان يختلف بحسب القلة والكثرة، وكثيرٌ منهم من يعلم أنها تتغَّير ويغشُّ الناسَ بها فيشغلون ذمتهم بأموالهم، وكلُّ ذلك حرامٌ سحت؛ ومنهم من يزعم أنها لا تتغير، وهو بعيد، ولو قدَّرنا عدم تغييرها فذلك لا يجوز أيضًا ... ، وقد سمعت سيدي أبا محمد رحمه الله يقول: إن صرفها لا يجوز حتى يبيِّن أنها من عمل يده وليست بمعدنية، وهذا الذي قاله رحمه الله مناجازة ذلك بعد البيان لا يسوغ في هذا الزمان؛ بسبب أنه إن بيَّن هو فمَن صارت إليه فالغالبُ أنه لا يبيِّن، والاحتراز من هذا متعذِّر. هذا وجهٌ، ووجهٌ ثانٍ أنه إن بيَّن أنها من صنعة يده تمزَّق عِرضُه، والغالب أنه يؤول إلى سفك دمه).

وقال قاضي الجماعة أبو إسحاق بن عبد الرفيع التونسي: (لو دُبِّرت الفضة أو غيرها من الأجساد حتى تصير ذهبًا خالصًا لا شك فيه، فمتى لم يقل بائعها لمبتاعها: هذا كان فضة أو جسدًا من الأجساد فدبَّرته حتى صار ذهبَاً كما ترى

لكان غاشًّا مدلسًا، ومتى ذكر ذلك لم يشتره منه بفلس، ويقول: كذلك يدبِّره غيرُك فيرجع إلى أصله! ومعتاد الناس أنهم يتبايعون بالأصول المعدنية ذهبًا وفضة، لا بالأحجار المصنوعة. فكل من باع المصنوع على أنه معدني ولم يعلم المبتاع بذلك داخلٌ في قوله - صلى الله عليه وسلم -: (من غشَّنا فليس منا). انظر: (المهاج الواضح) للماجري، و (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى)).

وقال ابن ناجي في (شرح الرسالة): (ونقل بعض من لقيناه عن بعض المغاربة بأنه أخذ من قول الشيخ [ابن أبي زيد]: (ولا أن يكتم من أمر سلعته) إلى آخره أن الكيمياء لا تجوز؛ لأن من يدفع له من ذهبها شئ لو أعلمهما قَبِلَه، ولا يُمْكِنه أن يبيِّنه؛ لأنه خاف على نفسه. قال شيخنا أبو مهدي: وهَبْ أنه لا يخاف، فيدخله الفساد من جهة أخرى، وهي صيرورتها إلى أصلها وإن بَعُدَ أمرُها. وذكَر حكاية المازري المقتضية لذلك، ولولا الإطالة لذكرناها).

وسئل السيوطي كما في (الحاوي) عمَّا يفعله بعض الناس من تركيب حوائج يجتمع منها ذهبٌ وفضة يسمى (الكيمياء) ويبيعه، هل يجوز أم لا؟ أو يفرَّق بين ما يظهر للنقَّاد وبين غيره؟

فأجاب: (أما مسألة الكيمياء فالذي يُقْطَع به فيها عدم الجواز، وعملُها من جملة الفساد في الأرض، فلا يصحُّ فيها البيع سواءٌ ظهر للنقَّاد أم لا).

ويجبُ على وليِّ الأمر ردعُ هؤلاء، والأخذُ على أيديهم، والتنكيلُ بهم؛ نصيحةً لله ولرسوله ولعباده، وقيامًا بالحقِّ الذي أوجبه الله عليه [1].

(1) نصوص أهل العلم في التحذير من الزَّغَلية والإنكار عليهم مستفيضةٌ في كتب الحسبة وغيرها، ومعظمُ ولاية متولي الحسبة وقاعدتها (الإنكار على هؤلاء الزَّغَلية وأرباب الغشِّ في المطاعم والمشارب والملابس وغيرها؛ فإن هؤلاء يفسدون مصالح الأمة، والضررُ بهم عامٌّ لا يمكن الاحتراز منه، فعليه ألا يهمل أمرهم، وأن ينكِّل بهم أمثالهم، ولا يرفع عنهم عقوبته؛ فإن البليَّة بهم عظيمة، والمضرَّة بهم شاملة، لا سيَّما هؤلاء الكيمياويين الذين يغشُّون النقود والجواهر والعطر والطيب وغيرها، يضاهئون بزَغَلِهم وغشِّهم خلقَ الله) كما يقول المنصف في (الطرق الحكيمة). وانظر: (المعيار المعرب)، و (نهاية الرتبة) للشيزري، و (الرتبة في الحسبة) لان الرفعة، و (ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة).

قال تعالى {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا اصلوة وءاتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عقبة الامور} سورة الحج اية 41.

وهذه من أعظم المنكرات، فالنهيُ عنها من أفضل القربات.

والله سبحانه المسؤول أن يوفِّق ولاة أمور المسلمين لردع المبطلين، والأخذ على أيدي المفسدين، وقَمْع المُلْبِسين والمدلِّسين، ويُجْرِي على أيديهم وألسنتهم وقلوبهم ما يكون

قال تعالى {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا اصلوة وءاتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عقبة الامور} سورة الحج اية 41.

كفيلًا بصلاح الدُّنيا والدِّين، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى سائر من بناحيتكم من عباد الله الصَّالحين، وحزبه المفلحين، وجميع إخواننا من المسلمين، والحمدالله رب العالمين، وصلى الله على محمَّد وآله أجمعين.

???

قرأ عليَّ الإمام الأجل الفاضل كمال الدين محمود بن الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الجاري هذا الكتاب وهو (نصيحة الأغبياء ببطلان الكيمياء) تأليفي في مجلسين آخرهما يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر صفر سنة ثمان وثلاثين وسبعمئة، وأذنت له في روايته عني وسائر ما كتبته وجمعته وعلقته سواه، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم. [وكتب محمد بن أبي بكر بن القيم] حامدًا لله ومصليًا على رسوله.

فسألني من رأيت اجابته حتما، وقضاء حقه غنما، والتثاقل عن اسعافه بما طلب غرما، ان اكتب له من الادلة على بطلانها ما ينكشف به وجه الصواب، عادلا عن طرفي الاختصار والاطناب، متعرضا الى شبه الكيمياويين التي انتزغوها (كذا في الاصل افتعال من النزغ ولم اجده مستعملا ونزغ الشيطان وسواسه وخطراته التي يلقيها في القلب كما في بدائع الفوائد 2/ 765 ويحتمل ان تكون بالعين المهملة على الجادة انتزعوها الا ان في رسم الاصل زيادة معنى) من الالوان (اي من مواد مختلفة شرعية وعقلية وحسية وقد ذكر في المدارج 2/ 635 ان الكاذب متلون لان الكذب الوان فهو يتلون يتلونه) ونحلوها كثيرا من الانبياء واهل الايمان، افتراء عليهم، ونسبة للزغل والمحال اليهم، مبينا لبطلان ما انتحلوه، دابا عما رموا به كتاب الله ورسله من الباطل واقترفوه، فبادرت الى تعليق هذه الكلمات، ناهبا لها من ايدي العوارض والشواغل الصارفات، مستعينا بحول الله العلي العظيم، متعرضا لنفحاته انه هو الجواد الكريم.

وهذا من المُحال لان خاصية النار التفريق بين الجواهر المختلطة وتحليل المركبات الى ما منه تركبت، فاذا أُلقِيَت الجواهر التي قد ركب منها جوهر واحد في النار فإنها تتقي أقواها بأضعفها فلا يزال الاضعف فالاضعف يذهب حتى ينتهي الى الجزء الاقوى حتى يتحلل المركب بأجمعه فكيف يقول عاقل: ان النار لا تحلل اجزاء هذا المركب بعد تركيبه؟!

ومما يوضِّح هذا ان الذي يُدخِلُه الكيمياويُّين على الجوهر الذي يصبغونه لا يخلو إما أن يكون أصبَر من المصبوغ على النار او مثله او دونه في الصبر عليها فان كان دونه في الصبر على النار وجب ان تزيله النار عن المصبوغ ويبقى المصبوغ خلوًا منه عاريًا عنه وان كان اقوى منه وجب ان يفنى المصبوغ ويبقى هو بعد فناء المصبوغ، وليس الحال كذلك في الذهب والفضة بعد الرَّوبصة [1]

(1) صهر المعادن لتصفيتها وتخليصها من الشوائب، وبه يُكشَف الزغل. انظر (نهاية الرتبة) للشيزري (77) و (معالم القربة) لابن الإخوة (146)،و (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى) (102)، و (تكملة المعاجم) (5/ 231)

وأيضًا؛ فإن العلماء الأمة لم يوجب احدٌ منهم في الكيمياء حقًّا، لا خُمُسًا ولا زكاةً ولا غير ذلك، وقد اتفقوا على أن في الِّركاز الخُمُس (1)، كما ثبت ذلك عن النبي "ص" (2). والرِّكاز

الذي لا ريب فيه هو دفنُ الجاهليَّة (3)، وهي الكنوزُ المدفونة في الأرض، وأما المعادنُ فجمهور العلماء يوجبون فيها حقًا، إما الزكاة وهو قولُ أهل الحجاز، وإما الخُمُس وهو قول أهل العراق (4).

فلو كانت الكيمياء حقًا حلالاً لكان الواجبُ فيها أعظمَ من الواجب في الرِّكاز وفي المَعْدِن؛ لأنها ذهبٌ عظيمٌ بسعيٍ يسيرٍ أيسر من استخراج المعادن والرِّكاز، ولكن هي عند علماء الدين من الغِشِّ الباطلِ المحرَّم الذي لا يحلُّ عملُه ولا اتخاذُه، فضلاً عن أن يوجبوا فيها ما

(1) انظر: (الإجماع) لابن المنذر 46.
(2) أخرجه البخاري (1499) ومسلم (1710).
(3) انظر: (التمهيد) و (الإستذكار).
(4) انظر: (الأموال) لأبي عبيد، و (المبسوط)، و (الإشراف على نكت مسائل الخلاف)، و (الحاوي) و (المغني).

فأخبر سبحانه أنه آتاه من الكنوز ما آتاه، والكنوز إما أن يكون هو قد كنَزَها كما قال تعالى: {والذين يكنزون الذهب والفضة} سورة التوبة اية 34. وإما أن تكون كنوزًا اطَّلع عليها مِن دَفْنِ مَن قبله وهي الرِّكاز. ثم قُدِّر موت ذلك الكيمياوي، وكان له رئاسةٌ في البلد عظيمة، فلمْ يشهد جنازته من جيرانه وغيرهم من المسلمين إلا أقل من عشرة.

قال الشيخ: فشهدتُ بيعَ كتبه، فلمَّا عُرِضَت كتبُ الَّصنعة [1] للبيع، وكانت كثيرة، وكان كبراء الناس وفضلاؤهم حاضرين، وكان المتولِّي لبيعها من أهل السَّيف من ولاة الأمر والديوان حضورًا، فقلت له: هذه الكتب لا يحل ُبيعها؛ فإن الناس يشترونها فيعملون بما فيها، فتقولون: هؤلاء زَغَلِيَّة [2]، فتقطعون أيديهم [3]، فإذا بعتم هذه الكتب فقد تسبَّبتم ببيعها إلى

[1] كتب الكيمياء.
[2] غشاشون مزيِّفون نسبة إلى الزَّغل. انظر: (تكملة المعاجم) و (معجم تيمور).
[3] قال عبد الباسط بن خليل الظاهري في أحداث سنة 862 من كتابه (نيل الأمل في ذيل الدول) (وأخذ السلطان في التشديد في أمر الفضة بعد ذلك وفي أمر الزَّغَلية، وقُبِض على جماعة منهم، وقُطِعت فيه الكثير من الأيدي، حتى إنه وُجِد جرابٌ بحانوت إنسان به عُدَّة الزَّغَلية فأمر السلطان بقطع يد من وُجِدَ عنده). وفي أحداث سنة 881 (7/ 157): (وفيه قطع السلطانُ يد إنسان مغربيٍّ وُجِد عنده آلات الزَّغَلية، وذُكِر عنه أنه كان يضرب الذهب المغشوش). ويذكر ليون الإفريقي (توفي بعد سنة 957) في كتابه (وصف إفريقيا) أن أكثر الكيميائيين الموجودين بفاس (تنقصهم يدٌ)، عقوبة لهم على تزييف العملة.

الكرامة، ... وإن كانت الصناعة تؤثر في الحديد مثلًا حتى يصير ذهبًا أو فضة فهذا صبغٌ وتصفية، وليس بقلب عينٍ حقيقية، فهذا من باب الغشّ وهو حرام).

- ومن الحجج الواهية لتصحيح الكيمياء ما ذكره قطب الدين الشيرازي (ت: 710)، وكان ممن يثبت الكيمياء، قال ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار): (حدثني شيخنا فريدالدهر شمس الدين الأصفهاني، قال: كان قطب الدين الشيرازي رحمه الله يثبت صحة الكيمياء، فبحثتُ معه في بطلان الكيمياء، فقال لي: أنت تعلم ما يتلف من الذهب في الأبنية والمستعمَلات، ومعادنُ الذهب لا يتحصَّل منها نظير ما يتلف أو ينفذ، وأما الهند فإني حرَّرتُ أن له ثلاثة آلاف سنة لم يخرج منه ذهبٌ إلى البلاد ولا دخل إليه ذهبٌ فخرج منه، والتجَّار من الآفاق تقصد الهند بالذهب العَيْن تتعوَّض عنه بأعواد وحشائش وصموغ لا غير، فلولا أن الذهب يُعْمَل لعُدِم بالجملة الكافية)، قال فصحيح، وأما إثباته لصحة الكيمياء فباطلٌ لا صحة له).

- ومن الأدلة التي احتجَّ بها أهل الكيمياء: ما ذكره الشاطبي عنهم في (الموافقات)، قال: (فقد تكلَّف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآياتٍ من القرآن وأحاديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، كما استدلَّ أهل العدد بقوله ... ، وأهلُ الكيمياء بقوله ?: (أَنزَلَ مِنَ السمآء مآء فسالت أودية بِقَدَرِهَا) الآية).

الكتاب:

حقيقتها ومواقف العلماء منها ومعها نصيحة الأغبياء ببطلان الكيمياء

المؤلف:

ترقيم الكتاب:

غير موافق للمطبوع

ملاحظات:

الكتاب: حقيقتها ومواقف العلماء منها ومعها نصيحة الأغبياء ببطلان الكيمياء
المؤلف: ابن القيم الجوزية دراسة وتحقيق: د. عبد الرحمن حسن قائد
المصدر:الشاملة الذهبية